سلسلة الكتب العزمية

الصوفية
فى عيون سلفية

الكتاب الثانى

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

سلسلة الكتب العزمية

الصوفية
فى عيونٍ سلفية

(الكتاب الثانى)

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

الطبعة الأولى
شعبان ١٤٢٦ هـ - سبتمبر ٢٠٠٥م

رقم الإيداع
٤٤٨٤ / ٢٠٠٥

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، أمر بـالتقوى فـى سـرائر الأمـر وخفيات العمل، حتى ذهب المتقون بعاجل الدنيا وآجل الآخـرة، فشاركوا أهل الدنيا فى دنياهم، ولم يشاركهم أهـل الـدنيا فـى آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوهـا بأفضـل مـا أكلت، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح، أصابوا لـذة زهد الدنيا فى دنياهم، وتيقنوا أنهم جيران الله غداً فى آخـرتهم، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذة.

والصلاة والسلام على النور المبين، الذى سرى سـره فـى القلوب فملأها يقيناً، وظهر للبصـائر فاطمأنـت القلـوب بمـا شهدت، ونطقت الألسنة بحقيقة التوحيد، فوهبـت لمـن شـهدوا الإيقان والمزيد بما شهد به.. سيدنا ومولانا محمد.

اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وآله وصحبه وورثته، صـلاة تشرح بها صدورنا، وتيسر بها أمورنا، وتجملنـا بهـا بجمـال رضوانك الأكبر، وفضلك العظيم، ومِنّتك يا رب العالمين.

أما بعد:

كم لقىَ الصفوة من أهل التصوف فظائع الأقاويـل وشـنائع الأباطيل.. من أهل الجهالة الذين خالفوا الأمـر الإلهـى الأول

الذى تعبد الله به أوليائه.. اقرأ.. فما طالعوا كتاباً ولا قرأوا صحيفة ولا أثراً مما حبرته همم العارفين، وأملته أشواق العابدين الساجدين.

ولو أنهم قرأوا لألجم الحق باطلهم، وأغرق النور ليلهم الدامس، الذى امتلأ بحيات الأكاذيب، وعقارب الحقد، وحشرات الجهالة والعناد، وجراثيم العمالة لأعداء الإسلام. ولو أنهم أزاحوا التحجر الآخذ بعقولهم، والعناد الآسر بنفوسهم، وقرأوا لأئمة السلف لأكلت النار صحائف الاتهام التى يمسكونها، ثم أتت على أيديهم العابثة فأحرقتها وهم لا يشعرون من هول ما يفاجئهم من سطوع الحق وعزة أهله.

سنة الله الماضية فى عباده، وخواص أوليائه، أن يبتليهم بالمعرضين، ويرميهم بالمعرضين والمعترضين، يكيلون التهم، ويثيرون الظلم.. وما ذاك بضائر أهل الحق، ولا بمنتقص أرباب السلوك، فقد ملأ ضمائرهم نوراً، وأشبع سرائرهم راحة وسروراً إخبار الحق عز شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ (الفرقان:٣١) وطاف بخواطرهم، واستقر بأفئدتهم قول الصادق المصدوق ﷺ: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه).

ويظل التصوف شامخاً.. ويظل عبر العصور سامقاً يفوح أريجه وينـدى عبيره.. ويستطيبه الأولياء والأصفياء والصالحون، وتقتبس القلوب السليمة من أنواره، ولا يضر ضوء الشمس أنه لا يعترف به الخفاش، ولا ينقص الشهد الخالص أنه مر في فم المريض، ولا يحجب الحق البين على قلوب أهله أنه ثقيل على البهائم والشياطين.. اللهم إني أعوذ بك من غضبك الذى تحجب به الأنوار عن قلوب من غضبت عليهم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

إن الهدف الأساس من هذه السلسلة المباركة من الكتب هو جمع كلمة المسلمين ووحدتهم، وإيجاد روح المحبة والتعاون بينهم حتى نتفرغ لأعدائنا، ونستجمع قوتنا لتخليص أرضنا السليبة، ومؤازرة إخواننا المسلمين في فلسطين وأفغانستان والعراق والشيشان، وفى كل مكان من أرض الله يذكر في اسمه، لأن عدونا واحد، وهدفنا واحد، وإلهنا واحد، وديننا واحد، ونبينا واحد، ومصيرنا واحد، وقبلتنا واحدة.

الوهابية يخدمون أعداء الأمة:

إن أول ما يريد أعداؤنا منا الخلاف وضياع الوقت في الجدال وتمزيق الأمة، حتى ننشغل بأمور جانبية نضخمها حتى تستغرقنا ولا نرى سواها من الأمور الكبيرة التى يجب علينا أن

نجاهد من أجلها.

يقول على بن محمد بن سنان المدرس بالمسجد النبوى الشريف فى كتاب (المجموع المفيد فى عقيدة التوحيد) ص ٥٥ ما يلى: (أيها المسلمون لا ينفع إسلامكم إلا إذا أعلنتم الحرب الشعواء على هذه الطرق الصوفية، وقضيتم عليها فأخرجتموها من بين جنوبكم وقلوبكم ومجالسكم ومجامعكم ومساجدكم وزواياكم، حاربوها قبل أن تحاربوا اليهود فإنها روح اليهود والمجوس، تغلغلت فى جسم الإسلام فزلزلته وأوهنته).

ويقول كبير مرتزقتهم فى مصر محمد حامد الفقى مؤسس جماعة أنصار السنة: (هذه الطرق الصوفية ليست من الإسلام فى شىء، والإسلام لا يعرف هذا التصوف بتقاليده وطقوسه وشطحاته وأسراره وبواطنه، بل جاءه دخيلا من متصوفة الفرس والهند وغيرهم، ممن ورثوه عن الوثنيين القدماء التى لا تزال بقاياهم فى الهند والصين ومختلف بقاع الأرض، وهى صورة طبق الأصل فى عقائدها وطقوسها مما يسمونه التصوف الإسلامى حذو النعل بالنعل، فما عرف اسم التصوف والصوفية إلا بعد القرن الأول الهجري).

وفى ختام فتواه يطالب المسلمين جميعاً أن يعلنوا الحرب الشعواء على الصوفية بجميع ألوانها، وفى كل طرقها، لأن

إسلامهم لن ينفع إلا بذلك.

ويقول محمد المرزوقى بن عبد المؤمن فى كتاب (التوحيد على طريقة السؤال والجواب) نشر رابطة العالم الإسلامى (الوهابية)، طباعة مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ص ٧٩:

س: ما حكم أهل الطرق، هل هم من أولياء الرحمن أم من أولياء الشيطان؟

ج: بل هم من أولياء الشيطان.

س: ولم قلت ذلك؟

ج: لأنهم خالفوا الله وخالفوا رسوله ﷺ الذى طاعته طاعة لله، ومخالفته مخالفة لله.

ويقول عبد الرحمن عبد الخالق فى كتابه (فضائح الصوفية) ص٤٢: (إعلم أولاً أن التصوف بحر من القاذورات، فقد جمع المتصوفة كل أنواع الكفر والزندقة التى توجد فى فلسفات الهند وإيران واليونان، وكل مكر القرامطة والفرق الباطنية، وكل خرافات المنحرفين، وكل دجل المدجلين، وكل وحى الشياطين، ووضعوا كل ذلك فى إطار التصوف وعلومه ومبادئه وكشوفه. فلا يتصور عقلك عقيدة كفرية فى الأرض إلا تجدها فى التصوف).

قد يخطىء بعض الناس فى الحكم عَلَى الصوفية بعد قــراءة ما قاله فراخ الوهابية، ويظن أن الصوفية طائفة خارجــة عــن الإسلام، وذلك ربما يكون بحسن نية لما يسمعه ممن لا علم لهم بحقائق الأمور، لذلك لا بد من تجلية هذا الأمر فى أذهــان مــن التبس عليهم شأنهم.

بالنسبة للتسمية (التصوف) التى كثر حولها الخلاف، فنكتفى بما قاله الإمام الشاطبى ناقلا عن أبى القاسم القشيرى فى كتــاب (الاعتصام) ج١ ص ٨٩ ما يلى: (إنهم إنمــا اختصــوا باســم التصوف انفراداً به عن أهل البدع، فــذكر أن المســلمين بعــد رسول الله ﷺ لم يسم أفاضلهم فى عصرهم باسم علــم ســوى الصحبة، إذ لا فضيلة فوقها، ثم سمى من يليهم التــابعين، ثــم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممــن لهــم شدة عناية فى الدين: الزهاد والعباد، قال: ثــم ظهــرت البــدع وادعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعباداً، فانفرد خــواص أهــل السنة المراعون أنفاسهم مع الله والحافظون قلوبهم عــن الغفلــة باسم التصوف).

وقد ذكر الشيخ محمد الحافظ التجانى فى كتابه (أهل الحق): (قال ابن تيمية فى رسالته الصوفية والفقراء ص ٨١ طبع المنار سنة ١٩٢٨ عن اصطلاح القوم: وهم يسيرون بالصــوفية إلــى معنى الصديق، وأفضل الخلق بعــد الأنبيــاء الصــديقون، ولا

مشاحة فى الاصطلاح، فمن جمع بين صفاء العلم فى أعلى مرتبة من الشهود الجامع لعلم اليقين وعين اليقين، وصفاء العمل فى أسمى مرتبة من الإخلاص، وصفاء الحال فى ذروة الصدق والحب الإلهى والمحبوبية، فادعه من الربانيين أو قل من الصديقين، أو ادعه صوفياً فلا جناح عليك، فالمسمى واحد، وإن اختلفت الأسماء).

أما عن تعريف الصوفية فيقول الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم فى رسالته (عقيدة النجاة) ص ١٧: (الصوفية هم الذين صفت قلوبهم من شوائب الكون، وتطهرت نفوسهم من رجس الشهوات، وتعلقت هممهم بالله تعالى، ففنوا عن كل ما سواه، ووجهوا وجوههم شطره، لم تحجبهم الكائنات عن شهود مبدعها، ولم تشغلهم الآيات الجلية عن فهم إشاراتها وذوق معانيها. هم عبيد الله السائرون على منهج نبيه ﷺ، وهم الذين تلقوا أسرار التوحيد وأنوار الحكمة بقلوب واعية ونفوس صافية من العلماء العارفين بالله، ورثة رسول الله ﷺ وآله).

الصوفية أتباع الكتاب والسنة والسلف الصالح:

إنه من الأمور البديهية، والمسلمات الثابتة التى لا اختلاف فيها أن المسلم يجب أن يحمل حاله على أحسن الوجوه، وأن نلتمس له المعاذير لتبرير وجهة نظره، إذا وجدنا إلى ذلك

سبيلا، وخاصة إذا نفى عن نفسه الباطل، وأعلن ولو بصفة إجمالية أنه يريد الحق، ويؤمن به، وذلك يتجلى فيما قاله ﷺ لأسامة بن زيد وقد قتل رجلا بعد أن نطق بالشهادة: (هلا شققت عن قلبه)[رواه البخارى].

وظل ﷺ يعنفه ويلومه على ذلك، مع أن حالة الرجل ونطقه بالشهادة بعد أن تمكن منه أسامة بن زيد قد توحى بأنه قالها تقية، بعد أن تمكن منه، وانتصر عليه.. ولكن الإسلام يضع لنا منهجاً ربانياً قويماً، ولأن نخطىء فى العفو خير من أن نخطىء فى العقوبة، ويجب علينا أن نكل بواطن الناس إلى الله، ونحكم للمسلم بما أعلنه عن نفسه وجعله شعاره وعنوان عقيدته، وليس لنا أن نحمل حاله على شىء آخر مهما كانت الأسباب، وهكذا الأمر ينطبق على حالة الصوفية وما يصلنا من أقوالهم وأحوالهم، فإنك لو سألت أى واحد من هؤلاء القوم، أو ممن ينتسب إليهم هل هناك أدنى مخالفة للكتاب والسنة يعتقدها الصوفية؟ لأجابك الجميع بشدة ويقين: إنه ليس للصوفية أى ابتداع فى الدين أو مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآله.

وإليك بعض أقوال أئمتهم:

١) يقول الإمام أبو القاسم الجنيد الملقب بسيد الطائفة: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار رسول الله ﷺ. وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به

في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

٢) وقال سهل بن عبد الله: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء - أى بالمعصوم ﷺ - فهو عيش النفس، أى: من هوى النفس، لا يقبله الله تعالى.

٣) وقال أبو العباس أحمد بن أبى الحوارى: من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل عمله.

٤) وقال أبو الحسن النورى: من رأيتموه يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربوا منه.

٥) وقال ابن عطاء الله السكندرى: من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ فى أوامره وأفعاله وأخلاقه.

٦) وقال أبو حمزة البغدادى: لا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ فى أحواله وأقواله وأفعاله.

٧) وقال أبو القاسم النصر آباذى عالم خراسان: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع وترك الرخص والتأويلات.

٨) وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى عن الصوفى: إن سالك سبيل الله قليل، والمدعى فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين

له، الأولى: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها. والثانية: لا يصل فيه إلا من واظب على جملة النوافل، فكيف يصل اليه من أهمل الفرائض؟.

٩) وقال الإمام التستري: أصول طريقنا سبعة: التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق.

١٠) وقال أبو حفص أحد كبار الصوفيه: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال.

١١) وقال الشيخ محي الدين بن عربي: لا يرتجي الوصول من لم يتابع الرسول ﷺ.

١٢) ويقول أبو يزيد البسطامي: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

١٣) ويقول السيد أبو الحسن الشاذلي: إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها

في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة.

١٤) ويقول الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم: (القرآن المجيد مورد آل العزائم الروى، وروضتهم الجنى، وحوضهم المورود، وكوثرهم المشهود، وميزان أحوالهم، ومرجع مقاماتهم، يسألونه قبل العمل، فإن أذن سارعوا، وإن منع تركوا واستغفروا).

ويقول: (من رغب عن سنته ﷺ ولو عمل بكل الكتاب فهو هالك، ومن أقام سنته واهتدى بهديه وتابعه نجا وحظى بحظوة الشهود)

ويقول: (كل من خالف الكتاب والسنة وادعى أنه عالم فهو كاذب).

وغير ذلك من الأقوال الكثيرة التى تبين أن الاستقامة على الشريعة المطهرة هى أفضل من أى كرامة عند أئمة الصوفية.

الدس والافتراء على الصوفية:

وبناء على ذلك نرى أن كل ما يخالف الإسلام فى شئ فلا تصح نسبته إلى الصوفية والتصوف، وإنما هو من ضلالات المدعين الذين انتسبوا للتصوف زوراً وبهتاناً، أو من الأمور المدسوسة على كتبهم بقصد الطعن فى هؤلاء القوم وتشويه

صورتهم ومنهجهم، كما حدث في كتب التفسير من الإسرائيليات التي تتنافى مع ما عرف عن هؤلاء المفسرين من حرص على بيان الحق، والبعد عن هذه المرويات، ولذلك فإنا نرى أن الهوة بين المعارضين للتصوف والصوفية نشأت من اقتناعهم بأن هذه الأقوال الباطلة هي من صميم آراء الصوفية، ولو أنهم وضعوا الأمور في نصابها، ونظروا نظرة فاحصة مستبصرة لوجب عليهم ألا يلصقوا هذه الأقوال الشنيعة بهؤلاء القوم، وأن يحسنوا الظن بهم وخاصة أنهم قد لقوا ربهم، وأصبحوا بين يدي الله تعالى، وأفضوا إلى ما قدموا.

وإليك بعض الأمثلة على ذلك الدس والافتراء على هؤلاء القوم:

١) يقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه لطائف المنن: (وما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة، وذلك لما صنفت كتاب (البحر المورود في المواثيق والعهود) وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر، وتسارع الناس لكتابته، فكتبوا منه نحو أربعين نسخة. غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي، واستعاروا منه نسخته، وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائفة، ومسائل خارقة لإجماع المسلمين، وحكايات وسخريات عن جحا وابن الراوندي، وسبكوا في ذلك غضون الكتاب في مواضع

كثيرة، حتى كأنهم المؤلف، ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها إلى سوق الكتبيين فى يوم السوق - وهو مجمع طلبة العلم - فنظروا فى تلك الكراريس، ورأوا اسمى عليها، فاشتراها من لا يخشى الله تعالى ثم دار بها على علماء جامع الأزهر، فأوقع ذلك فتنة كبيرة، ومكث الناس يدورون فى المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة، وانتصر لى الشيخ شهاب الدين اللقانى، وشيخ الإسلام الحنبلى، والشيخ شهاب الدين بن الحلبى، كل ذلك وأنا لا أشعر، فأرسل لى شخص من المحبين بالجامع الأزهر وأخبرنى الخبر، فأرسلت نسختى التى عليها خطوط العلماء، فنظروا فيها فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة.. إلخ). (لطائف المنن والأخلاق جـ ٢ ص ١٩٠).

وقد ذكر ذلك أيضاً المؤرخ الكبير عبد الحى بن العماد الحنبلى فى كتابه (شذرات الذهب) جـ ٨ ص ٣٧٤ حيث قال: (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات تخالف ظاهر الشرع، وعقائد زائفة ومسائل تخالف الإجماع، فخذلهم الله، وأظهره الله عليهم، وكان مواظباً على السنة، ومبالغاً فى الورع.. إلخ).

ومن ذلك يتبين لنا واضحاً جلياً أن كل ما نراه فى الكتب منسوباً إليهم وهو مخالف للشرع كما فى الطبقات الكبرى للشعرانى، فهو من وضع الزنادقة، وقد جاء ذلك فى كتاب (حقائق عن التصوف) للشيخ عبد القادر عيسى ص ٥٠٨.

٢) وكذلك دسوا على الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله، قال الشعراني: (كان ﷺ متقيداً بالكتاب والسنة ويقول: كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك) إلى أن قال: (وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة، وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه كما أخبرني بذلك سيدى أبو طاهر المغربى، ثم أخرج لى نسخة الفتوحات المكية التى قابلها على نسخة الشيخ التى بخطه فى مدينة قونية، فلم ير فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات) كما جاء فى اليواقيت والجواهر جـ ١ ص٩.

وذكر العلامة ابن عابدين الفقيه الحنفى وصاحب أكبر موسوعة فى الفقه الحنفى: أن الراجح عنده بالنسبة لما ورد فى كتب الشيخ محى الدين بن عربى مما يخالف الشرع بأنه مفترى عليه، ولذلك تجد نص عبارة الحصكفى صاحب الدر المختار جـ ٣ ص ٣٠٣: (لكن الذى تيقنته أن بعض اليهود افتراها على الشيخ قدس الله سره).

٣) بل إن ابن تيمية نفسه يعترف بالدس على السيدة رابعة العدوية حيث يقول: (وأما ما ذكر عن رابعة عن قولها عن البيت إنه الصنم المعبود فى الأرض فهو كذب على رابعة المؤمنة التقية..) وذلك فى كتاب (مجموعة الرسائل والمسائل) لابن تيمية جـ ١ ص ٨٠.

شهادة علماء الإسلام:

إن فراخ الوهابية فى اعتراضها على الصوفية خالفت إجماع علماء الإسلام فى ذلك، وها نحن نضع بين أيديهم شهادة علماء الأمة الإسلامية لمنهج التصوف ولسلوك الصوفية، ونبدأهم بالأئمة الأربعة لعلم الفقه، وهم تلاميذ مباشرون أو غير مباشرين لإمام الأئمة سيدى جعفر الصادق ﷺ

١) نقل الفقيه الحنفى الحصكفى صاحب الدر المختار أن أبا على الدقاق رحمه الله تعالى قال: أنا أخذت هذه الطريقة من أبى القاسم النصر آباذى، وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلى، وهو من السرى السقطى، وهو من معروف الكرخى، وهو من داود الطائى، وهو أخذ العلم والطريقة من أبى حنيفة ﷺ، وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله، ثم قال صاحب الدر معلقاً: فيا عجبا لك يا أخى ألم يكن لك أسوة حسنة فى هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين فى هذا الإقرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والحقيقة؟ ومن بعدهم فى هذا الأمر فلهم تبع، وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع، وذلك فى كتاب الدر المختار جـ ١ ص ٤٣ وعليه حاشية ابن عابدين.

٢) وقال الإمام مالك: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق) وذلك فى كتاب (الشفا للقاضى عياض) شرح ملا على القارى

جـ ٥ ص ٤٠٨، وذكرها أيضاً فى كتابه (عين العلم وزين الحلم) جـ ١ ص ٣٣، ونقلها كذلك العلامة العدوى على شرح الإمام أبى الحسن فى الفقه المالكى جـ ٢ ص ١٩٥.

٣) وجاء عن الإمام الشافعى قوله: (حبب إلىَّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف) وذلك فى كتاب: (كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) للعجلونى ج ١ ص ٣٤١.

٤) ونقل العلامة محمد السفارينى الحنبلى عن إبراهيم بن عبد الله القلانسى أن الإمام أحمد بن حنبل قال عن الصوفية: (لا أعلم أقواماً أفضل منهم، قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون؟ قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة). وهذا فى كتاب: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب جـ ١ ص ١٢٠.

فهذه أقوال الأئمة الأربعة – رضى الله تعالى عنهم – فى بيان فضل علم التصوف ومنزلة السادة الصوفية فى الإسلام.

نماذج أخرى من العلماء:

١) قال المفسر الكبير فخر الدين الرازى فى كتابه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) جـ ٢ الباب الثامن فى أحوال الصوفية: (والمتصوفة قوم يشغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر

الله تعالى فى سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله تعالى، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين).

والإمام فخر الرازى هو من تعرف الأمة مكانته العلمية وفقهه ومؤلفاته وعقيدته الإسلامية الصحيحة.

٢) وجاء فى كتاب (نور التحقيق) للشيخ حامد صقر ص ٩٦: قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رضى الله تعالى عنهم: (قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التى لا تتهدم دنياً وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم).

والعز بن عبد السلام هو العالم العظيم والمجاهد الكبير والفقيه المعروف، وقد شهد له جل علماء الإسلام بأنه سلطان العلماء.

٣) وقال الشيخ تاج الدين السبكى عالم الأصول فى كتابه (مفيد النعم ومبين النقم) ص ١١٩ متحدثاً عن الصوفية: (والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضى الله عنهم وعنا بهم).

والإمام السبكى من كبار الفقهاء وعلماء الأصول المدافعين عن السنة بإجماع كثير من العلماء.

٤) وقال الإمام جلال الدين السيوطى فى كتابه (تأييد الحقيقة العلية) ص ٥٧: (وقد تأملت الأمور التى أنكرها أهل الشرع

على الصوفية فلم أر صوفيا محققا يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاة الذين ادعوا أنهم صوفية وليسوا منها).

والإمام السيوطي هو المحدث والمفسر والفقيه وعالم القراءات والحافظ الذى شهد له الجميع

٥) ويقول الشيخ (محمد أبو زهرة) فى مجلة لواء الإسلام العدد ١٢ سنة ١٩٦٠ ص ٧٥٨: (ولذلك أوجب أن نتجه إلى الصوفية كعلاج أخير لوقاية الشباب من الفساد، ولا أعتبر أن هناك علاجاً أجدى منها).

والشيخ أبو زهرة من الفقهاء المعاصرين المشهورين بالحيدة والإنصاف.

٦) وقال الإمام النووى شارح صحيح مسلم وصاحب كتاب رياض الصالحين: (أصول طريق التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلن، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار، والرضى عن الله فى القليل والكثير، والرجوع إلى الله فى السراء والضراء) وذلك فى كتابه (المقاصد فى التوحيد والعبادة وأصول التصوف) ص ٢٠. والإمام النووى هو علامة عصره وحجة كبرى فى الفقه الشافعي وعلم الحديث.

موقف أئمة السلفية من الصوفية:

إن الوهابية التى تنتمى- هكذا تقول- إلى السلفية، وإلى ابن

تيمية تحديداً، سوف تظهر لها مفاجأة كبرى فى هذا الكتاب فى حكم أئمتها على الصوفية. ونحن نسألهم هل أنتم متبعون أم مبتدعون؟.. فإن كنتم متبعين فامدحوا الصوفية كما مدحها شيوخكم، وإن كنتم مبتدعين، فأنتم خوارج وعملاء لأعداء الإسلام الذين يريدون تفريق الأمة.. وها هى شهادة شيوخكم فى الصوفية تملأ جنبات هذا الكتاب، ومنهم: ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، ومحمد بن عبد الوهاب، ومحمود خطاب السبكى، وحسن البنا، ونحن فى انتظار ردكم على سؤالنا السابق.

معلوم أن الصوفية عند أئمة الحركة السلفية وسادتهم طائفة إسلامية مثل بقية الطوائف الإسلامية الأخرى كالمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والمجاهدين وغيرهم، فيهم المصيب والمخطئ، والصالح والطالح، والأصلى والمزيف.

ولكن إذا أطلق اللفظ فإنه يراد به دائماً: الصالح والمصيب والصحيح منهم، فمثلا لو قلنا: (المحدثون) فالمراد بهم عند الجميع: المحدثون الصالحون الذين حفظوا على الأمة أحاديث رسول الله ﷺ وخدموها وبلغوها ونشروها بالطريقة المرضية كالأئمة: البخارى ومسلم والترمذى وابن حجر العسقلانى والسيوطى وابن ماجه وأبو داود والإمام أحمد وغيرهم..

ولا يراد بكلمة (المحدثون) مطلقاً، عند أى أحد أولئك

(الدجالون الكذابون الوضاعون) المنتسبون إلى هذه الطائفة الكريمة، والذين قد بين فسادهم ودجلهم أئمة الجرح والتعديل فى كل عصر وزمان هذا كما هو معلوم للجميع.

وهكذا هو الحال فى الفقهاء والمتكلمين والمجاهدين والمؤرخين وغيرهم من طوائف المسلمين.

وهكذا يجب أن يكون الحال فى الصوفية أيضاً.

فعندما يقال: (الصوفية) فحتماً يكون المراد منهم: الفضيل بن عياض ومعروف الكرخى وأبو سليمان الدارانى وبشر الحافى وعبد القادر الجيلانى والجنيد البغدادى وغيرهم ممن سار على نهجهم القويم.

ولا يراد (بالصوفية) البتة أولئك (الدجالون المخرفون المخالفون لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الدخلاء على التصوف وقطاع الطريق إلى الله والدار الآخرة).

بل الذى ندين الله سبحانه وتعالى به، وما نعتقده والحمد لله وبفضله وتوفيقه فى قرارة نفوسنا، وما وجدنا عليه مشايخنا رحمهم الله هو أنه حتى هؤلاء السادة الكرام الفضيل وبشر والدارانى والجنيد والغزالى والجيلانى وغيرهم من الأئمة الكبار وأمثالهم ومن سواهم كلهم يؤخذ من قولهم ويترك إلا المصطفى الصادق المصدوق ﷺ وآله.

فالحجة دائماً كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فمن وجدناه موافقاً لهما ولأصولهما وتعاليمهما فعلى الرأس والعين، ومن خالفهما وخالف أصولهما وتعاليمهما فنضرب به عرض الحائط، كائنا من كان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبما أن هذه الفتنة: أى مخالفة التصوف والصوفية بدأت تنشط فى بعضهم باسم السلفية أيضاً، كان لزاماً على العلماء ورثة الأنبياء وأهل الحق أن يبذلوا جهودهم لردعها ومكافحتها فإنهم هم المسئولون عن ذلك، حيث إنه من أهم واجباتهم، ولا مجال للتقصير فى ذلك لأهميته.

وقد قال ﷺ: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) رواه البيهقى فى كتاب المدخل عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى مرسلا.

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم.

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ أيضاً (فى حديث طويل) أن رسول الله ﷺ قال: (ولا يمنعن أحدا منكم هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه) وفى رواية: (إن رأى منكراً أن يغيره) رواه

الترمذي، كذا في المشكاة.

وقد بدأ العلماء والحمد لله مكافحة هذه الفتنة في كل مكان أداء للواجب الشرعي، وإحقاقاً للحق فجزاهم الله خيراً وزادهم توفيقاً وسداداً، ونصرهم بنصره.

وقد قمنا بجمع أقوال (أئمة الحركة السلفية) في التصوف وأموزه المتنوعة ومدحهم للسادة الصوفية والثناء عليهم، حتى يثبت للجميع أن هذا القول: (بأن التصوف كله باطل، وأن الصوفية طائفة زائغة لا علاقة لها بالإسلام، بل هم أعداء له، وأن أصلهم من اليونان وبوذية الهند.. إلخ)، نسبته إلى أئمة السلفية كذب وبهتان، وليعلم يقيناً أن من ادعى ذلك فإنما أنه جاهل مغرور أو كذاب مفتون.

مع أن ما تركناه من كلامهم في نفس الموضوع أكثر بكثير جداً مما ذكرناه.

وإنما هي نماذج فقط مما ورد في كلامهم عن التصوف والصوفية، وقد حاولنا أن نقدم كلام (أئمة الحركة السلفية) السابق ذكرهم نقياً جلياً، ولم نعلق على شيء من ذلك إلا ما كان للضرورة الشديدة جداً حتى يتوضح الموقف الصحيح لهم.

ونرجو البارئ الكريم أن يجعله سبباً لإظهار الحق، ولرفع الغشاوة عن القلوب والأبصار بفضل الله وكرمه.

كما نسأله سبحانه أن يحيينا ويميتنا ويحشرنا على ما كان عليه الفرقة الناجية تحت لواء إمامهم وسيدهم ومولاهم وقائدهم وحبيبهم حبيب رب العالمين وسيد الأنبياء والمرسلين الرحمة للعالمين، والأسوة الحسنة فى جميع الشئون لجميع المؤمنين.

فاللهم إن قلوبنا وجوارحنا ونواصينا بيدك لم تملكنا منها شيئاً، فإذا فعلت ذلك بنا فكن يا ربنا يا كريم أنت ولينا واهدنا إلى سواء السبيل.

واللهم ألهمنا مراشد أمورنا، وأعذنا من شرور أنفسنا، وخذ بقلوبنا إليك، ووفقنا لم تحبه وترضاه من القول والعمل والنية والهدى، إنك على كل شيء قدير.. آمين.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله أجمعين إلى يوم الدين. وجعلنا من أحبابه برحمته وجوده، إنه أرحم الراحمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

شعبان ١٤٢٦هـ	لجنة البحوث والدراسات
سبتمبر ٢٠٠٥م	بالطريقة العزمية

الفصل الأول

أحمد بن تيمية الحرّانى

من كلام المحققين المعاصرين يقول الدكتور أحمد بن محمد بنانى من كتابه (موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية) طبعت جامعة أم القرى بمكة المكرمة منه الطبعة الأولى عام ١٤٠٦هـ.

تحت عنوان (ملخص الرسالة) ما نصه:

(هذه الرسالة (موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية) تتناول كما هو واضح من عنوانها بعضاً مما كتبه الصوفية من موضوعات وما جرى بينهم من أبحاث ومناقشات، وتعرض من ذلك من وجهة نظرهم، وما استدلوا به على آرائهم، ثم تبين موقف الإمام ابن تيمية فى ذلك الموضوع من نقد أوتأييد أو إجمال أو تفصيل.

وفى أثناء ذلك يتضح الرأى الصحيح المستحق للتأييد من الرأى السقيم المستحق للإنكار، ومن مجموع كل ذلك يتضح موقف الإمام ابن تيمية الإجمالى من التصوف والصوفية.

وقد ظهر لى أن الإمام ابن تيمية لم يكن يعادى التصوف على إطلاقه، بل أنكر منه ما لا يوافق الكتاب والسنة، وما لم

يكن مأثوراً عن أحد من الصحابة والتابعين.

وقد تبين لنا في موضوعات البحث المسماة عند الصوفية بالمقامات والأحوال أن الإمام ابن تيمية أكثر علماً وأدق تعبيراً وأكثر تفصيلا في بعضها عن غيره ممن كتب في هذه الموضوعات من الصوفية وغيرهم.. إلخ).

كما أنه قال في خاتمة الكتاب ما نصه:-

(ثانياً: إن موضوع رسالتنا هو إظهار موقف الإمام ابن تيمية من التصوف وهل هو حق أم لا؟

وقد تبين لنا في الرسالة: أن الإمام ابن تيمية اتخذ ميزاناً حقاً صادقاً في محاسبة هؤلا ألا وهو الكتاب والسنة، فمن سار على هذا المنهج دون أن ينحرف عنه قيد أنملة فهو على الحق وعلى الصراط المستقيم، وجدير بالثناء والتقدير، ومن انحرف منهم من هذا الطريق السوى حاد عن ذلك الصراط المستقيم حكم الإمام ابن تيمية ببطلان عمله ورأيه)[١]. أ.هـ.

---

(١) رغم أن الباحث نصّب ابن تيمية وصيا على المسلمين، وقائماً على شرع الله تعالى يصوّب من يشاء، ورغم أخطاء ابن تيمية التى ذكرناها في كتب سابقة في حق الرسول وأهل البيت، بل وفى حق الإله، لأنه صاحب عقيدة التجسيم والتشبيه، إلا أننا نعرض أقواله في حق الصوفية حتى يرتدع من يزعمون أنهم أتباعه، ثم يكفرون السادة الصوفية.

ومن كلام المؤلفين المحققين المعاصرين ما ذكره المحقق الدكتور ماجد عرسان الكيلاني الأستاذ بكلية التربية بجامعة الملك عبد العزيز - فرع المدينة المنورة - من كتابه (الفكر التربوى عند ابن تيمية) يقول الدكتور الكيلاني فى صفحة (١٨) ما نصه:-

(وأهمية أعمال - هنرى لاوست - أنه أول باحث أجنبى استهدف مجابهة اللهجة المعادية لابن تيمية فى دوائر الدراسات الغربية وتقديم صورة أفضل وأكثر واقعية عن هذا المفكر المسلم ومكانته فى تاريخ الفكر الإسلامى.

ولقد سار على منهاج لاوست هذا: البروفسور جورج مقدسى فى مقالاته الثلاث التى كتبها عن ابن تيمية بأسلوب علمى مزكز.

وكانت المقالة الأولى بعنوان:

Ibn Taymiya's Autigraph Manuscript on Istihsan.

أى (مخطوطة ابن تيمية عن الاستحسان)

والمقالة الثانية بعنوان:

Ibn Taymiya: A Sufi of the Qadiria

.Order

أى (ابن تيمية صوفى من الطريقة القادرية)

أما المقالة الثالثة فكانت بعنوان:

The Tanbih of Ibn Taymiya on .Dialectic

أى (تنبيه ابن تيمية عن التفكير الجدلى).

وفي جميع هذه المقالات الثلاث حاول جـورج مقدسـى أن يثبت خطأ ما أورده – دونكان ماكدونالـد – مـن ملاحظـات عدائية تجاه ابن تيمية، حين زعم أن ابن تيمية لم يكن إلا رجـلاً أنانياً (وليس لديه من نفع لطريق الزهد أو الفلسـفة أو الـدين، وأنه لم يقصد إلا نفع نفسه).

ويرد جورج مقدسي على هذا الاتهام بالقول: (إن طريق ابن تيمية والدرجة العالية من الفهم الشامل للإسلام لديه لا يرفضان مكانة الزهد والتصوف إذا كانت محتويات الزهـد ومضـامين التصوف صحيحة النقل صائبة المحتوى، وما زال – مقدسى – مستمراً في أبحاثه فى هذا الميدان وللرجل شغف بـابن تيميـة سوف يقود إلى أبحاث عميقة مطولة) أ.هـ.

ابن تيمية قادرى الطريقة:

وقال فى صفحة (١٧٧) ما نصه:-

(تباين الباحثون فى موقف ابن تيمية من الصوفية واختلفوا اختلافاً كبيراً، وما زال النقاش حول هذا الموضوع يدور على صفحات الكتب والمجلات المتخصصة، فلقد صوَّره البعض - كما فعل المستشرق د. ب. ماكدونالد - على أنه العدو اللدود للصوفية والحياة الروحية سواء.

وآخرون ما زالوا يصرون على أن ابن تيمية لم يكن معادياً للصوفية، وأنه هو نفسه كان صوفياً تلقى صوفيته من الطريقة القادرية.

والواقع أن ما استهدفه ابن تيمية هو إبراز الجوهر الأصلى للتصوف كمدرسة تربوية هدفها الأساس تهذيب النفس وتطهيرها من أخلاقها الذميمة، ولذلك عارض كل انحراف طرأ على التصوف فيما يخص هذا الهدف، وكل ما يخالف القرآن والسنة فى هذا المجال.

وانطلاقاً من هذه القاعدة أظهر ابن تيمية احتراماً كبيراً لروَّاد الزهد وشيوخ التصوف الذين التزموا بالقرآن والسنة من أمثال الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، والسرى السقطى، والجنيد، وحماد الدباس، والشيخ عبد القادر الكيلانى، وعدى بن

مسافر.

وأما ما ذكره – جورج مقدسى -- حول انتساب ابــن تيميــة للقادرية فقد استند فيه إلى سلسلة شيوخ ابن تيميــة التــى تبــدأ بموفق الدين بن قدامة تلميذ الشيخ عبد القادر المباشــر وخــريج المدرسة القادرية فى بغداد.

واستند كذلك إلى الاحترام والتقدير اللذين يبثهما ابــن تيميــة فى كتاباته للشيخ عبد القادر، فهو فى رسائله وكتبه يشــير إلــى الشيخ عبد القادر بنفس المستوى الذى يشير فيه إلى الإمام ابــن حنبل من خلال الألقاب التى يسبغها عليه، فهو (قطب العارفين) وهو (شيخنا أبو محمد قدس الله روحه) وهو (أعظم زمانه أمراً بالتزام الشرع) (١) و (الشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهى وتقديمه على الــذوق، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية) (٢).

وإذا ضرب ابن تيمية مثلا قال: (ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ) (٣) وهو كثير الاستشهاد به كنموذج يقتــدى به فى الاعتقاد والسلوك.

---

(١) ابن تيمية – الفتاوى – كتاب علم السلوك مجلد ١٠ صفحة ٤٤٨.

(٢) ابن تيمية – الفتاوى – المصدر نفسه ص ٤٨٨.

(٣) ابن تيمية – الفتاوى – المصدر نفسه ص (٦٦٨).

وكذلك شرح ابن تيمية مقتطفات كثيرة من أقوال الشيخ عبد القادر وشرح كتابه فتوح الغيب فى مئات الصفحات التى تضمنها المجلد العاشر من الفتاوى والمسمى - كتاب علم السلوك - وخلال هذه الشروح يقدم ابن تيمية الشيخ عبد القادر كنموذج يجسد الإلتزام الصحيح بالكتاب والسنة.

وهناك بعض الإشارات فى كتب ابن تيمية تدل على أنه كان لأسرته صلة روحية بالشيخ عبد القادر - فمثلا يذكر فى كتاب - علم السلوك - ما يلى:

[حدثنى أبى عن محى الدين النحاس وأظننى سمعتها منه أنه رأى الشيخ عبد القادر فى منامه وهو يقول إخباراً عن الحق تعالى: (من جاءنا تلقيناه..) ثم معنى فى شرح هذه العبارة فى صفحة (٢)]. أ.هـ.

وقال فى صفحة (١٧٩) ما نصه:

(ومهما كان الأمر فإن الموقف الذى اتخذه ابن تيمية من الصوفية تميز بأمرين:

الأول: إنه تعامل مع الصوفية بنفس الأسلوب الذى تعامل به مع الفقهاء والمذاهب الفقهية وعلماء الكلام، فهو يرى أن شيوخ التصوف الأوائل قيدوا علومهم وتربيتهم بالكتاب والسنة.

أما المتأخرون فقد ضل كثير منهم بتأثير الأفلاطونية الجديدة

التى تسربت إلى الفكر الإسلامي عامة خلال ترجمة العلوم اليونانية وانحرفوا بعيداً عن الطريق الصحيح للزهد والتربية الروحية (١).

والثانى: أن ابن تيمية لم يرفض التصوف جملة، وإنما انتقد ما طرأ عليه من خروج عن الأهداف الأولى ومناهج التربية والسلوك الأولى، وفى ذلك يقول: (والصوفية بنوا أمرهم على الإرادة ولا بد منها، لكن بشرط أن تكون إرادة الله وحده بما أمر (٢)).

ويقول أيضاً: (وما وقع فى هؤلاء من فساد الإعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها وباطلها، وصنف ينكر حقها وباطلها، كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه.

والصواب: إنما هو الإقرار بما فيها وفى غيرها من موافقة الكتاب والسنة، والإنكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة (٣)) أ.هـ.

---

(١) ابن تيمية – الفتاوى – علم السلوك أيضاً مجلد ١٠ ص ٤٨٦ – ٥١٦.
(٢) ابن تيمية – الفتاوى – أصول الفقه مجلد ١٩ ص ١٧٢.
(٣) ابن تيمية – الفتاوى – علم السلوك الجزء (١٠) ص (٨٢).

كلمات ابن تيمية فى التصوف

ونشرع الآن بتوفيق الله تعالى فى ذكر قطع متنوعة من كلام ابن تيمية بنفسه وذلك من مؤلفاته المختلفة تتعلق بأمور التصوف، ويأتى فيها ذكر السادة الصوفية وأحوالهم – نبدأ أولا بمؤلفه الجامع المبسوط.

١- (مجموع فتاوى ابن تيمية) جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم العاصمى النجدى الحنبلى، وساعده ابنه محمد، الطبعة الأولى سنة ١٣٨١هـ بمطبعة الرياض – المجلد الحادى عشر صفحة (٥) ذكر فيه:

الصوفية والأحوال:

(سئل شيخ الإسلام قدس الله روحه عن (الصوفية) وأنهم أقسام، و (الفقراء) أقسام، فما صفه كل قسم؟ وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه؟

فأجاب: الحمد لله، أما لفظ (الصوفية) فإنه لم يكن مشهوراً فى القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك.

وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل وأبى سليمان الدارانى وغيرهما.

وقد روى عن سفيان الثورى أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك

عن الحسن البصرى.

وتنازعوا فى (المعنى) الذى أضيف إليه الصوفى فإنه من أسماء النسب كالقرشي والمدنى وأمثال ذلك.

فقيل: إنه نسبة إلى (أهل الصُفة) وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل: (صُفّى).

وقيل: نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله، وهو أيضاً غلط، فإنه لو كان كذلك لقيل: (صَفّى).

وقيل: نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل: (صفوى).

وقيل: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضاً لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم (الصوفى) لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الإسلام.

وقيل: وهو المعروف -- إنه نسبة إلى لبس الصوف.

فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن البصري وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقول: فقه كوفي وعبادة بصرية.

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم وهدى نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلاماً نحوا من هذا.

ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو من عباد أهل البصرة، مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن ونحوه، كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (المدثر:٨) فخر ميتاً.

وكقصة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري فمات، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة من هذا حاله، فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين: كأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، ومحمد

بن سيرين و نحوهم.

والمنكرون لهم مأخذان:

١- منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً، يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال: ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خر فهو صادق.

٢- ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدى الصحابة كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله.

والذى عليه جمهور العلماء: أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه.

ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا فقال: قرىء القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشى عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه، ونحو هذا.

وقد نقل عن الشافعى أنه أصابه ذلك، وعلى بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب فى صدقه.

لكن الأحوال التى كانت فى الصحابة هى المذكورة فى القرآن وهى: وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود..

وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء عن الدين ما هو مذموم، وقد فعلوا. ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها.

وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

بل المراتب ثلاث:

(أحدها): حال الظالم لنفسه الذى هو قاسي القلب، لا يلين للسماع والذكر، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود.

(والثانية): حال المؤمن التقي الذى فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه، فهذا الذى يصعق صعق موت أو صعق غشي، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله.

وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله.

ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه وكذلك في غيره، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التى تمرضه أو تقتله أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك..

فهذه الأحوال التى يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت

أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم، ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله.

(والثالثة): من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه، فهو أفضل منهم.

وهذه حال الصحابة رضى الله عنهم، وهو حال نبينا ﷺ، فإنه أسرى به إلى السماء، وأراه الله ما أراه، وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله، فحاله أفضل من حال موسى ﷺ الذي خر صعقاً لما تجلى ربه للجبل.

وحال موسى حال جليلة علية فاضلة، لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل.

والمقصود: أن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة والأحوال خرجت من البصرة، وذلك لشدة الخوف.

فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السليمي وأمثالهما أمر عظيم، ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم.

ومن خاف الله خوفاً مقتصداً يدعوه إلى فعل ما يحبه الله

وترك ما يكرهه الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء. وهو حال الصحابة رضي الله عنهم.

وقد روى أن عطاء السليمى رؤى بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لى: (يا عطاء أما استحييت منى أن تخافنى كل هذا، أما بلغك أنى غفور رحيم).

وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضي الله عنهم وعلى ما سنه الرسول ﷺ أمور، توجب أن يصير الناس طرفين:

١- قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا فى ذلك.

٢- وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها.

والتحقيق: أنهم فى هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين فى مسائل القضاء والأمارة ونحو ذلك، وخرج فيهم الرأى الذى فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس.

وخيار الناس من (أهل الفقه والرأى) فى أولئك الكوفيين على طرفين:

١- قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم.

٢- وقوم يغلون في تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم، وربما فضلوهم على الصحابة، كما أن الغلاة في أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة. وهذا باب يفترق فيه الناس.

والصواب للمسلم: أن يعلمُ أن خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه.

ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦). وقال ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)، وقال: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وإن كثيراً من المؤمنين - المتقين أولياء الله - قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده، فلا بد أن يصدر منه خطأ - إما في علومه وأقواله وإما في أعماله وأحواله، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم فإن الله تعالى قال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة:٢٨٥،٢٨٦) قال الله تعالى: قد فعلت.

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء، أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطيء ضال مبتدع.

ومن جعل كل مجتهد فى طاعة أخطأ فى بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً فهو مخطيء ضال مبتدع [١].

وإذا عرف أن منشأ (التصوف) كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد، كما كان فى الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهى لباس الصوف، فقيل فى أحدهم: (صوفى).

وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

---

(١) لاحظ هذه العبارة وقارن بينها وبين ما يتلفظ به الرهابية وذيولهم فى حق بعض سادات الصوفية، وإن سألتهم عن ذنبهم ذكروا لك أن كونهم صوفية هو أكبر ذنب لهم.

الصوفية والصديقية:

ثم (التصوف) عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم: الصوفي: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر.

التصوف: كتمان المعاني وترك الدعاوى، وأشباه ذلك، وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى (الصديق).

وأفضل الخلق بعد الأنبياء: الصديقون، كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء: ٦٩) ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين.

فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان (الصديق) من أهل هذه الطريق، كما يقال: (صديقوا العلماء) و(صديقوا الأمراء)، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين: إنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضاً، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله

ورسوله بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصديق في العصر الأول أكمل منهم.

والصديقون درجات وأنواع.

ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه.

ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع، فيه تنازَعَ الناس في طريقهم.

فطائفة ذمت (الصوفية والتصوف) وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء.

وكلا طرفي هذه الأمور ذميم (١).

(والصواب) أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم

---

(١) يلاحظ هذه العبارة المنتسبون إلى السلفية وخاصة إلى ابن تيمية.

من أهل طاعة الله.

ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى (طبقات الصوفية) وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد. فهذا أصل التصوف.

ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف:

صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم.

(١) فأما (صوفية الحقائق) فهم الذين وصفناهم.

(٢) وأما (صوفية الأرزاق) فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك، فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز، وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ولكن

يشترط فيهم ثلاثة شروط:-

أحدها: العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.

والثانى: التأدب بآداب أهل الطريق، وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها.

والثالث: أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جماعاً للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك.

(٣) وأما (صوفية الرسم) فهم المقصرون على النسبة، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك.

فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم.

الفقير والصوفى والولى:

.. (ثم بسط فى البحث عن لفظ (الفقير) حتى قال): لكن لما كان جنس الزهد فى الفقراء أغلب، صار الفقر فى اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف.

فإذا قيل: هذا فيه فقر أو ما فيه فقر لم يرد به عـدم المـال، ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفى من المعـارف والأحـوال والأخلاق والآداب ونحو ذلك.

وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا أيهما أفضـل: الفقيـر أو الصوفى؟.

فذهب طائفة إلى ترجيح الصوفى كأبى جعفر السـهروردى ونحوه، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير كطوائف كثيرين.

وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ونحو ذلك.

وأكثر الناس قد رجحوا الفقير.

والتحقيق: أن أفضلهما أتقاهما، فإن كان الصـوفى أتقـى لله كان أفضل منه، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه، فهو أفضل من الفقير.

وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كـان أفضل منه، فإن استويا فى فعل المحبوب وترك غير المحبـوب استويا فى الدرجة.

و(أولياء الله) هم المؤمنون المتقون سواء سمى أحدهم: فقيراً أو صوفيا أو فقيها أو عالماً أو تـاجراً أو جنـدياً أو صـانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس : ٦٢).

٢- وذكر فى (مجموع الفتاوى) الجزء الحادى عشر ص ٢٥:

(وسئل: ما تقول الفقهاء رضى الله عنهم فى رجل يقول: (إن الفقر لم نتعبد به ولم نؤمر به ولا جئتم له ولا معنى، وأنه غير سبيل موصل إلى رضا الله تعالى وإلى رضا رسوله، وإنما تعبدنا بمتابعة أمر الله واجتناب نهيه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن أصل كل شيء العلم والتعبد به والعمل به والتقوى والروع عن المحارم، و(الفقر) المسمى على لسان الطائفة والأكابر هو الزهد فى الدنيا يفيده العلم الشرعى فيكون الزهد فى الدنيا العمل بالعلم وهذا هو الفقر، فإذا الفقر فرع من فروع العلم والأمر على هذا، وما ثم طريق أوصل من العلم والعمل بالعلم على ما صح وثبت عن النبى ﷺ، ويقولون: (إن الفقر المسمى المعروف عند أكثر أهل الزى المشروع فى هذه الأعصار من الزى والألفاظ والاصطلاحات المعتادة غير مرضى لله ولا رسوله) فهل الأمر كما قال أو غير ذلك؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب ابن تيمية قائلاً: الحمد لله، أصل هذه المسألة أن

الألفاظ التى جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه مثل لفظ الإيمان والبر والتقوى والصدق والعدل والإحسان والصبر والشكر والتوكل والخوف والرجاء والحب لله والطاعة لله وللرسول وبر الوالدين والوفاء بالعهد ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن.

فهذ الأمور التى يحبها الله ورسوله هى الطريق الموصل إلى الله مع ترك ما نهى الله عنه ورسوله كالكفر والنفاق والكذب والإثم والعدوان والظلم والجزع والهلع والشرك والبخل والجبن وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك.

فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه، هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين الصديقين والشهداء والصالحين، وهذا (الصراط المستقيم) يشتمل على علم وعمل: علم شرعي وعمل شرعي.

فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجراً، ومن عمل بغير علم كان ضالاً.

وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة:٦،٧) قال النبي ﷺ: اليهود مغضوب عليهم،

والنصارى عبدوا الله بغير علم.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

وكانوا يقولون: من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى.

فمن دعا إلى العلم دون العمل بالمأمور به كان مضلا.

ومن دعا إلى العمل دون العلم كان مضلا.

وأضل منهما من سلك فى العلم طريق أهل البدع فيتبع أموراً تخالف الكتاب والسنة يظنها علوماً وهى جهالات.

وكذلك من سلك فى العبادة طريق أهل البدع فيعمل أعمالاً تخالف الأعمال المشروعة يظنها عبادات وهى ضلالات.

فهذا وهذا كثير فى المنحرف المنتسب إلى فقه أو فقر، يجتمع فيه أنه يدعو إلى العلم دون العمل، والعمل دون العلم، ويكون ما يدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة.

وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل، يكون كلاهما موافقاً للشريعة. فالسالك طريق (الفقر والتصوف والزهد والعبادة) إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة، وإلا كان ضالا عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

والسالك من (الفقه والعلم والنظر والكلام) إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق.

فهذا هو الأصل الذى يجب اعتماده على كل مسلم.

وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠).

ولا ريب أن لفظ (الفقر) فى الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يكونوا يريدون به نفس طريق الله وفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والأخلاق المحمودة ولا نحو ذلك، بل الفقر عندهم ضد الغنى.

و(الفقراء) هم الذين ذكرهم الله فى قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ (التوبة: ٦٠). وفى قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٣) وفى قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ (الحشر: ٨).

و(الغنى) هو الذى لا يحل له أخذ الزكاة، أو الذى تجب عليه الزكاة أو ما يشبه ذلك.

لكن لما كان الفقر مظنة الزهد طوعاً وكرهاً، إذ من العصمة أن لا تقدر، وصار المتأخرون كثيراً ما يقرنون بالفقر معنى الزهد.

والزهد قد يكون مع الغنى وقد يكون مع الفقر، ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير.

و(الزهد) المشروع ترك ما لا ينفع فى الدار الآخرة، وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع، بل ترك الفضول التى تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع.

وكذلك فى أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ (الصوفى) لأن لبس الصوف يكثر فى الزهاد.

٣- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء الحادى عشر صفحة (٧٠):

(وأما المتأخرون (فالفقير) فى عرفهم عبارة عن السالك إلى الله تعالى كما هو (الصوفى) فى عرفهم أيضاً.

ثم منهم من يرجح مسمى (الصوفى) على مسمى (الفقير) لأنه عنده الذى قام بالباطن والظاهر.

ومنهم من يرجح مسمى (الفقير) لأنه عنده الذى قطع العلائق ولم يشتغل فى الظاهر بغير الأمور الواجبة، وهذه منازعات لفظية إصطلاحية.

و(التحقيق) أن المراد المحمود بهذين الاسمين داخل فى

مسمى الصديق والولى والصالح ونحو ذلك من الأسماء التى جاء بها الكتاب والسنة، فمن حيث دخل فى الأسماء النبوية يترتب عليه من الحكم ما جاءت به الرسالة.

وأما ما تميز به مما يعده صاحبه فضلا وليس بفضل، أو مما يوالى عليه صاحبه غيره ونحو ذلك من الأمور التى يترتب عليها زيادة الدرجة فى الدين والدنيا فهى أمور مهدرة فى الشريعة إلا إذا جعلت من المباحات كالصناعات فهذا لا بأس به، بشرط أن لا يعتقد أن تلك المباحات من الأمور المستحبات.

وأما ما يقترن بذلك من الأمور المكروهة فى دين الله من أنواع البدع والفجور فيجب النهى عنه كما جاءت به الشريعة.

٤- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء الحادى عشر ص (١٩٤):

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً كما قيل: (كم من صديق فى قباء، وكم من زنديق فى عباء).

بل يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور.

فيوجدون فى أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف، ويوجدون فى التجار والصناع والزراع.

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل: ٢٠).

وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك ثم حدث بعد ذلك اسم (الصوفية والفقراء).

وصار اسم (الفقراء) يعنى به أهل السلوك، وهذا عرف حادث. وقد تنازع الناس أيما أفضل مسمى (الصوفى) أو مسمى (الفقير)؟ ويتنازعون أيضاً أيما أفضل: الغنى الشاكر أو الفقير الصابر؟.

الكرامات وخوارق العادات:

٥- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء الحادى عشر ص (٣٢٠)، بعد بحث عن الخارق قال ما نصه:-

فتلخص أن الخارق (كشفا كان أم تأثيراً) ثلاثة أقسام:

محمود فى الدين، ومذموم فى الدين، ومباح لا محمــود ولا مذموم فى الدين.

فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة، وإن لم يكن فيه منفعــة كان كسائر المباحات التى لا منفعة فيها كاللعب والعبث.

قال أبو على الجوزجانى [١]: كن طالباً للاســتقامة لا طالبــاً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة.

قال الشيخ السهروردى فى عوارفه: وهذا الذى ذكره أصــل عظيم كبير فى الباب وسر غفل عن حقيقته كثيــر مــن أهــل السلوك والطلاب.

وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصــالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العــادات، فأبــداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شىء من ذلك، ويحبون أن يرزقــوا شيئاً من ذلك، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه فــى صحة عمله حيث لم يكاشف بشىء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصــادقين من ذلك باباً.

---

(١) أحد كبار مشايخ السادة الصوفية وأئمتهم ﷺ.

والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة تفنناً، فيقوى عزمه على هذا الزهد فى الدنيا، والخروج من دواعى الهوى.

وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب، ومن كوشف بصدق اليقين أغنى بذلك عن رؤية خرق العادات، لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين، فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقيناً.

فلا تقضى الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به، وتقتضى الحكمة كشف ذلك لآخر لموضع حاجته، وكان هذا الثانى يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول.

فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهى كل الكرامة، ثم إذا وقع فى طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع فما يبالي ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة.

فتعلم هذا، لأنه أصل كبير للطالبين والعلماء الزاهدين ومشايخ الصوفية.

أذواق الصوفية من المصالح المرسلة:

٦- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء الحادى عشر ص ٣٣٨:

(فالطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية: طريقة أهلِ الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف، قد تجاذبها الناس نفياً وإثباتاً.

فمن الناس من ينكر منها ما لا يعرفه، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه، فيرفعه فوق قدره وينفى ما سواه.

فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية وكثير منها فاسد متناقض، وهم أكثر خلق الله تناقضاً واختلافاً، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعياً.

وطائفة ممن تدعى السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب، وقد يحتجون بالضعيف فى مقابلة القوى.

وكثير من المتصوفة والفقراء يبنى على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً وهى خيالات غير مطابقة وأوهام غير صادقة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً﴾ (النجم: ٢٨).. فنقول:

أما طرق الأحكام الشرعية التى نتكلم عليها فى أصول الفقه فهى – بإجماع المسلمين– (الكتاب) لم يختلف أحد من الأئمة فى ذلك، كما خالف بعض أهل الضلال فى الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية.

والثانى: (**السنة المتواترة**) التى لا تخالف ظاهر القرآن، بل تفسره مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها، ونصيب الزكاة وفرائضها، وصفة الحج والعمرة، وغير ذلك من الأحكام التى لم تعلم إلا بتفسير السنة.

الطريق الثالث: (**السنن المتواترة**) عن رسول الله ﷺ إما متلقاة بالقبول بين أهل العلم بها، أو برواية الثقات لها.

وهذه أيضاً مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم، وقد أنكرها بعض أهل الكلام.

وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشىء منها، وإنما يوجب العلم، فلم يفرقوا بين المتلقى بالقبول وغيره.

الطريق الرابع: (**الإجماع**) وهو متفق عليه من بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم فى الجملة، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة، لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة، وأما ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً.

الطريق الخامس: (**القياس على النص والإجماع**) وهو حجة أيضاً عند جماهير الفقهاء، ولكن كثيراً من أهل الرأى أسرف فيه حتى استعمله قبل البحث عن النص، وحتى رد به النصوص

وحتى استعمل منه الفاسد.

ومن أهل الكلام وأهل الحديث وأهل القياس من ينكره رأساً.

وهى مسألة كبيرة، والحق فيهـا متوسـط بـين الإسـراف والنقض.

الطريق السادس: **(الاستصحاب)** وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع، وهو حجة على عـدم الاعتقـاد بالاتفاق، وهل هو حجة فى اعتقاد العدم؟ فيه خلاف.

الطريق السابع: **(المصالح المرسلة)** وهو أن يرى المجتهـد أن هذا الفعل يجلب منفعة راجحة وليس فى الشرع ما ينفيه.

فهذه الطريق فيهـا خـلاف مشـهور، فالفقهـاء يسـمونها (المصالح المرسلة) ومنهم من يسميها (الرأى) وبعضهم يقـرب إليها (الاستحسان)، وقريـب منهـا: ذوق الصـوفية ووجـدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها أنهم يجدون فى القول والعمل مصـلحة فى قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته، وهذه مصلحة.

لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفـظ النفـوس والأموال والأعراض والعقول والأديان، وليس كذلك.

بل المصالح المرسلة فى جلب المنافع وفى دفع المضار، وما ذكروه من دفع المضار عن هذه الأمـور الخمسـة فهـو أحـد

القسمين.

وجلب المنفعة يكون في الدينا وفي الدين، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعي.

وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات التي يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي، فمن قصر المصالح على العقوبات التي فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر.

وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به، فإن من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم؛ وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه، وربما قدم على المصالح المرسلة كلاماً بخلاف النصوص، وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعاً بناء على أن الشرع لم يرد بها، ففوت واجبات ومستحبات، أو وقع في محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه.

إصلاح القلب مقدم على العبادة:

٧- وذكر أيضاً في (مجموع الفتاوى) الجزء الحادي عشر ص ٣٨١:

(وسئل: أيما أولى: معالجة ما يكره الله من قلبك مثل الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال وقسوة القلب وغير ذلك مما يختص بالقلب من درنه وخبثه، أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة من الصلاة والصيام وأنواع القربات من النوافل والمنذورات مع وجود تلك الأمور فى قلبه؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب: الحمد لله، من ذلك ما هو عليه واجب، وإن للأوجب فضل وزيادة كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسوله ﷺ: (ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه).

ثم قال: (ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه)، والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا خبث الملك خبثت جنوده.

ولهذا قال النبى ﷺ: (ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله).

وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر فى عمل الجسد، وإذا كان المقدم هو الأوجب [سواء] سمى باطناً أو ظاهراً فقد يكون ما يسمى باطناً أوجب مثل ترك الحسد والكبر فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام.

وقد يكون ما سمى ظاهراً أفضل، مثل قيام الليل، فإنه أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التى تخطر فى القلب من جنس الغبطة ونحوها، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتورث الخشوع ونحو ذلك من الآثار العظيمة، هى أفضل الأعمال والصدقة، والله أعلم.

مكاشفات أهل الصفا:

٨- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء الحادى عشر ص (٣٩٥):

(سئل: ما الحكمة فى أن المشتغلين بالذكر والفكر والرياضة ومجاهدة النفس وما أشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال - مع قلة علمهم وجهل بعضهم - ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه والبحث عنه؟ حتى لو بات الإنسان متوجهاً مشتغلاً بالذكر والحضور لا بد أن يرى واقعة أو يفتح عليه شيء، ولو بات ليلة يكرر على باب من أبواب الفقه لا يجد ذلك، حتى أن كثيراً من المتعبدين يجد للذكر حلاوة ولذة، ولا يجد ذلك عند قراءة القرآن مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم على العابد لا سيما إذا كان العابد محتاجاً إلى علم هو مشتغل به عن العبادة، ففى الحديث (إن الملائكة

تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)، وفى الحديث القدسى عن النبى ﷺ أنه قال: (إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للعابدين والمجاهدين: ادخلوا الجنة، فيقول العلماء: بفضل علمنا عبدوا وجاهدوا، فيقول الله عز وجل لهم: أنتم عندى كملائكتى، إشفعوا، فيشفعون ثم يدخلون الجنة) وغير ذلك من الأحاديث والآثار.

ثم إن كثيراً من المتعبدين يؤثر العبادة على طلب العلم مع جهله بما يبطل كثيراً من عبادته كنواقض الوضوء أو مبطلات الصلاة والصوم، وربما يحكى بعضهم حكاية فى هذا المعنى: بأن (رابعة العدوية) رحمها الله أتت ليلة بالقدس تصلى حتى الصباح، وإلى جانبها بيت فقيه يكرر على باب الحيض إلى الصباح، فلما أصبحت رابعة قالت له: يا هذا! وصل الواصلون إلى ربهم وأنت مشتغل بحيض النساء، أو نحوها.

فما المانع أن يحصل للمشتغلين بالعلم ما يحصل للمشتغلين بالعبادة مع فضله عليه؟.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، لا ريب أن الذى أوتى العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أوتوا الإيمان فقط، كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

والعلم الممدوح الذى دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذى ورثته الأنبياء كما قال النبى ﷺ: إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

وهذا العلم ثلاثة أقسام:

(القسم الأول): (علم بالله وأسمائه وصفاته) وما يتبع ذلك، وفى مثله أنزل الله سورة الإخلاص وآية الكرسى ونحوهما.

(والقسم الثانى): (العلم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية وما يكون من الأمور المستقبلة، وما هو كائن من الأمور الحاضرة)، وفى مثل هذا أنزل الله آيات القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار ونحو ذلك.

(والقسم الثالث): (العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقوالب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها وأقوال الجوارح وأعمالها).

وهذا العلم يندرج فيه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام، ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة، وهذا العلم يندرج فيه ما وجد فى كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال الظاهرة، فإن ذلك جزء من جزء من جزء من علم الدين، كما أن المكاشفات التى تكون لأهل الصفا جزء من جزء من جزء من

علم الأمور الكونية.

والناس إنما يغلطون فى هذه المسائل لأنهم يفهمون مسميات الأسماء الواردة فى الكتاب والسنة، ولا يعرفون حقائق الأمور الموجودة، فرب رجل يحفظ حروف العلم التى أعظمها حفظ حروف القرآن ولا يكون له من الفهم، بل ولا من الإيمان ما يتميز به على من أوتى القرآن.

ولم يؤت حفظ حروف العلم كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه: (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها).

فقد يكون الرجل حافظاً لحروف القرآن وسوره، ولا يكون مؤمناً بل يكون منافقاً، فالمؤمن الذى لا يحفظ حروفه وسوره خير منه، وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان، وأما الذى أوتى العلم والإيمان فهو مؤمن عليم فهو أفضل من المؤمن الذى ليس مثله فى العلم مثل اشتراكهما فى الإيمان، فهذا أصل تجب معرفته.

وههنا (أصل آخر) وهو: أنه ليس كل عمل أورث كشوفاً أو

تصرفاً فى الكون يكون أفضل من العمل الذى لا يـورث كشـفاً وتصرفاً.

فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على ديـن الله وإلا كان من متاع الحياة الدنيا.

وقد يحصل ذلك للكفار من المشركين وأهل الكتاب، وإن لـم يصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة، وأولئك أصحاب النار.

ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تتلقى من مثل هذا، وإنما تتلقى من دلالة الكتاب والسنة، ولهذا كان كثير من الأعمـال يحصـل لصاحبه فى الدنيا رئاسة ومال، فأكرم الخلق عنـد الله أتقـاهم، ومن عبد الله بغير علم فقد أفسد أكثر مما يصلح، وإن حصل له كشف وتصرف، وإن اقتدى به خلق كثير من العامة، وقد بسطنا الكلام فى هذا الباب فى مواضعه، فهذا (أصل ثان).

و(أصل ثالث) إن تفضيل العمل على العمل قد يكون مطلقـاً مثل تفضيل أصل الدين على فرعه وقد يكون مقيداً.

فقد يكون أحد العملين فى حق زيد أفضل من الآخر، والآخر فى حق عمرو أفضل، وقد يكونان متماثلين فى حق الشـخص، وقد يكون المفضول فى وقت أفضل من الفاضل، وقـد يكـون المفضول فى حق من يقدر عليه وينتفع به أفضل مـن الفاضـل فى حق من ليس كذلك.

مثال ذلك أن قراءة القرآن أفضل من مجــرد الــذكر بســنة رسول الله ﷺ وإجماع الأمة- ولا اعتبار بمن يخالف ذلك مــن جهال العباد- ثم الركوع والسجود ينهى فيه عن قراءة القــرآن، ويؤمر فيه بالذكر، وكذلك الذكر والدعاء فى الطــواف وعرفــة ونحوهما أفضل من قراءة القرآن.

وكذلك الأذكار المشروعة مثل ما يقال عنــد ســماع النــداء ودخول المسجد والمنزل والخروج منهما، وعند ســماع الديكــة والحمر ونحو ذلك أفضل من قراءة القرآن فى هذا الموطن.

وأيضاً فأكثر السالكين إذا قرأوا القرآن لا يفهمونه، وهم بعــد لم يذوقوا حلاوة الإيمان الذى يزيدهم بها القرآن إيمانــاً، فــإذا أقبلوا على الذكر أعطاهم الذكر من الإيمان ما يجدون حلاوتــه ولذته، فيكون الذكر أنفع لهم حينئذ من قراءة لا يفهمونهــا، ولا معهم من الإيمان ما يزداد بقراءة القرآن.

أما إذا أوتى الرجل الإيمان فالقرآن يزيده من الإيمان مــا لا يحصل بمجرد الذكر، فهذا (أصل ثالث).

و(أصل رابع) وهو: أن الرجل قد يأتى بالعمل الفاضل مــن غير مقام بشروطه، ولا إخلاص فيه، فيكون بتفويــت شــرائطه دون من أتى بالمفضول المكمل.

فهذه الأصول ونحوها تبين جواب هــذا الســائل، وإن كــان

تفصيل ذلك لا تتسع له الورقة، والله أعلم.

الأبدال والأقطاب والنجباء:

٩- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء الحادى عشر ص (٤٣٣):

(سئل عن الحديث المروى فى (الأبدال) هل هو صحيح أم مقطوع؟ وهل (الأبدال) مخصوص بالشام أم حيث تكون شعائر الإسلام قائمة بالكتاب والسنة يكون بها الأبدال بالشام وغيره من الأقاليم؟ وهل صحيح أن الولى يكون قاعداً فى جماعة ويغيب جسده؟ وما قول السادة العلماء فى هذه الأسماء التى تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة، ويقولون: هذا غوث الأغواث وهذا قطب الأقطاب وهذا قطب العالم وهذا القطب الكبير وهذا خاتم الأولياء؟.

فأجاب: أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل (الغوث) الذى بمكة و(الأوتاد الأربعة) و(الأقطاب السبعة) و(الأبدال الأربعين) و(النجباء الثلاثمائة) فهذه أسماء ليست موجودة فى كتاب الله تعالى، ولا هى أيضاً مأثورة عن النبى ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف يحمل (عليه) ألفاظ الأبدال، فقد روى فيهم حديث شامى منقطع الإسناد عن على بن أبى طالب ﷺ مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قال: (إن فيهم يعنى أهل

الشام الأبدال الأربعين رجلا، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا). ولا توجد هذه الأسماء فى كلام السلف كما هى على هذا الترتيب، ولا هى مأثورة على هذا الترتيب والمعانى عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولا عاماً.

وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ، وقد قالها إما آثرا لها عن غيره أو ذاكراً.

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله، ومن الباطل ما يوجب رده، وصار كثير من الناس على طرفى نقيض.

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل. وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق.

وإنما الصواب: التصديق بالحق والتكذيب بالباطل.. فأما لفظ (الغوث والغياث) فلا يستحقه إلا الله، فهو غياث المستغيثين فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، لا بملك مقرب ولا نبى مرسل[1]..

---

(١) هذا القول تدليس من ابن تيمية فقد أجاز الله تعالى الاستغاثة بغيره فى قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (القصص: ١٥). فالله تعالى هو المستغاث خلقاً وإيجاداً، والنبى أو الولى هو المستغاث تسبباً وكسباً، فقد ذكر البخارى فى حديث الشفاعة يوم

وأما الأوتاد فقد يوجد فى كلام البعض أنه يقول: فلان من الأوتاد، يعني بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان والدين فى قلوب من يهديهم الله به، كما يثبت الأرض بأوتادها.

وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان فى جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة والجبال الكبيرة، ومن كان بدونه كان بحسبه.

وليس ذلك محصوراً فى أربعة ولا أقل ولا أكثر، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين فى أوتاد الأرض.

وأما (القطب) فيوجد أيضاً فى كلامهم (فلان من الأقطاب) أو (فلان قطب) فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا باطناً أو ظاهراً فهو (قطب ذلك الأمر ومداره) سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه أو قريته أو مدينته، أمر دينها أو دنياها، باطناً أو ظاهراً، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر.

القيامة: (فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد..). ويصح أن يقال: استغثت النبى ﷺ، واستغثت بالنبى بمعنى واحد، وهو طلب الغوث منه بالدعاء ونحوه، فالاستغاثة بالمخلوق جائزة لغة وشرعاً، كما قالت السيدة هاجر أم إسماعيل عليه السلام عندما سمعت صوت الملك: أغث إن كان عندك غوث (البخارى).

لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا. فهذا هو القطب في عرفهم، فقد يتفق فى بعض الأعصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره، وقد يتفق فى عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة فى الفضل عند الله سواء.

ولا يجب أن يكون فى كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً. والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان: منها أنهم أبدال الأنبياء، ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات. وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر ولا تنحصر بأهل بقعة من الأرض، وبهذا التحرير يظهر المعنى فى اسم (النجباء).. وليس فى أولياء الله المتقين ولا عباد الله المخلصين الصالحين ولا أنبيائه المرسلين من كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس، بل هذا من جنس قول القائلين: (إن عليا فى السحاب) و (إن محمدا بن الحنفية فى جبال رضوى) و(إن محمد بن الحسن بسرداب سامرى) و(إن الحاكم بجبل مصر) و(إن الأبدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان) فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان.

نعم.. قد تخرق العادة فى حق الشخص فيغيب تارة عن أبصار الناس، إما لدفع عدو عنه وإما لغير ذلك، وأما أنه يكون

هكذا طول عمره فباطل.

نعم.. يكون نور قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره ومعرفته غيباً عن أعين الناس، ويكون صلاحه وولايته غيباً عن أكثر الناس فهذا هو الواقع. وأسرار الحق بينه وبين أوليائه، وأكثر الناس لا يعلمون(١).

المقامات والأحوال:

١٠- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء العاشر ص٥:

(بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وآله.

أما بعد.. فهذه كلمات مختصرات فى أعمال القلوب التى قد تسمى (المقامات والأحوال) وهى من أحوال الإيمان وقواعد

---

(١) يمكن الرجوع إلى رسالة الإمام السيوطى (الأقطاب والأنجاب والأوتاد والأبدال) المطبوعة فى كتابه (الحاوى).

الدين مثل: محبة الله ورسله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك.

اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان واستكتبها وكل منا عجلان.

فأقول: هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق - المأمورين فى الأصل - باتفاق أئمة الدين.

الناس فيها على ثلاث درجات كما هو فى أعمال الأبدان على (ثلاث درجات):

ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.

فالظالم لنفسه: العاصى بترك مأمور أو فعل محظور.

والمقتصد: المؤدى الواجبات والتارك المحرمات.

والسابق بالخيرات: المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب، والتارك للمحرم والمكروه، وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تمحى عنه إما بتوبته - والله يحب التوابين ويحب المتطهرين - وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بغير ذلك.

وكل من الصنفين: المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين

ذكرهم فى كتابه بقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦٢،٦٣). فحد أولياء الله: هم المؤمنون المتقون.

ولكن ذلك ينقسم إلى (عام) وهم المقتصدون.

و(خاص) وهم السابقون.

وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين.

وقد ذكر النبى ﷺ القسمين فى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: يقول الله: (من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه).

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب، والسيئات

المقتضية للعقاب، حتى يمكن أن يذاب ويعاقب.

وهذا قول جميع أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.. وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محموداً في حال أحد وإن ارتقى مقامه.

.. ولكن هذه (المقامات) ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم، فللخاصة خاصها وللعامة عامها.

مثال ذلك: أن هؤلاء قالوا: إن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه.

وقالوا: المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور، والعارف يشهد الأمور بفروعها منها فلا يطلب شيئاً.

فيقال: أما الأول فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته وهذا أهم الأمور إليه، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣) وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨) وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ

هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (الرعد: ٣٠).

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل فى عدة مواضع، لأن هذين يجمعان الدين كله، ولهذا قال من قال من السلف: (إن جمع الكتب المنزلة فى القرآن، وجمع علم القرآن فى المفصل، وجمع علم المفصل فى فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

١١- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء العاشر ص (٨٢):

كان المشايخ المصنفون فى السنة يذكرون فى عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية، لما فى ذلك من الفساد الذى وقع فيه طوائف من المتصوفة.

وما وقع من هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية، حتى صار المنحرفون صنفين:

١- صنف يقر بحقها وباطلها.

٢- وصنف ينكر حقها وباطلها، كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه(١).

---

(١) وطوائف من أدعياء السلفية المنتسبين إلى ابن تيمية مع الأسف.

والصواب: إنما هو إقرار بما فيها وفى غيرها من موافقة الكتاب والسنة، والإنكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة.

الفناء:

١٢- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء العاشر ص (٣٣٧):

(الفناء) الذى يوجد فى كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور: **أحدها:** فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح، وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو فى (الحقيقة): عبادة القلب وتوكله واستعانته وتألهه وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروج عن هذا.

وهذا هو (القلب السليم) الذى قال الله فيه: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٩) وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة وما يتبع ذلك.

وهذا الفناء لا ينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سواه، وإن كان شاعراً بالله وبالسوى، وترجمته: قول (لا إله إلا الله)، وكان النبى ﷺ يقول: (لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن)

وهذا في الجملة هو أول الدين وآخره.

والأمر الثاني: فناء القلب عن ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء الشهادة.

ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص، فإن شـهود الحقـائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبراً لعباده آمراً بشـرائعه أكمل من شهود وجوده أو صفة من صفاته أو اسم من أسـمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك.

ولهذا كان الصحابة أكمل شهوداً من أن ينقصهم شهود للحق مجملاً عن شهوده مفصلا، ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة، كما عرض لهم عنـد تجلـى بعـض الحقائق: الموت والغشى والصياح والاضطراب، وذلك لضـعف القلب عن شهود الحقائق على ما هى عليه وعن شهود التفرقـة فى الجمع والكثرة فى الوحدة، حتى اختلفوا فى إمكان ذلك.

وكثير منهم يرى أنه لا يمكن سوى ذلك لما رأى أنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتغل عن الخالق الآمر.

وإذا عورض بالنبى ﷺ وخلفائـه ادعـى الاختصـاص أو أعرض عن الجواب أو تحير فى الأمر، وسبب ذلك أنـه قـاس جميع الخلق على ما وجده من نفسه، ولهذا يقول بعض هـؤلاء:

إنه لا يمكن حين تجلى الحق سماع كلامه.

وفى هذا الفناء قد يقول: أنا الحق، أو سبحانى، أو ما فى الجبة إلا الله، إذا فنى بمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه.

كما يحكمون أن رجلا كان مستغرقاً فى محبة آخر فوقع المحبوب فى اليم، فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال: ما الذى أوقعك خلفى؟ فقال: غبت بك عنى فظننت أنك أنى.

وفى مثل هذا المقام يقع السكر الذى يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور، وكذلك يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى، وهى شطحات بعض المشايخ كقول بعضهم: (أنصب خيمتى على جهنم) ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع، وقد يكون صاحبها غير مأثوم.

لبس الخرقة والانتساب لشيخ معين:

١٣- وذكر أيضاً فى (مجموع الفتاوى) الجزء الحادى عشر ص (٥١٠):

(وأما لباس الخرقة التى يُلبسها بعض المشايخ المريدين،

فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة، ولا كان المشايخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يلبسونها المريدين ولكن طائفة من المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه.

وقد استدل بعضهم بأن النبي ﷺ ألبس أم خالد بن سعيد بن العاص ثوباً وقال لها: سنا، والسنا بلسان الحبشة: الحسن، وكانت قد ولدت بأرض الحبشة، فلهذا خاطبها بذلك اللسان.

واستدلوا أيضاً بحديث البردة التي نسجتها امرأة للنبي ﷺ فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها وقال: أردت أن تكون كفناً لي.

وليس في هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه، فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبسه كإعطائه إياه ما ينفعه، وأخذ ثوب من النبي ﷺ على وجه البركة كأخذ شعره على وجه البركة، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والاقتداء، ولكن يشبهه من بعض الوجوه خلع الملوك التي يخلعونها على من يولونه كأنها شعار وعلامة على الولاية والكرامة.

ولهذا يسمونها تشريفاً، وهذا ونحوه غايته أن يجعل من جنس المباحات، فإن اقترن به نية صالحة كان حسناً من هذه الجهة، وأما جعله سنة وطريقا إلى الله سبحانه وتعالى، فليس الأمر كذلك.

وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين: فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن، كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ وتلقاه عنهم التابعون، وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه، فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر.

الغلو في الشيخ:

١٤- وذكر أيضاً في (مجموع الفتاوى) الجزء الحادي عشر ص (٤٩٧):

وأما ما ذكروا من غلوهم في الشيوخ: فيجب أن يعلم أن الشيوخ الصالحين الذين يقتدى بهم في الدين هم المتبعون لطريق الأنبياء والمرسلين كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ومن له في الأمة لسان صدق.

وطريقة هؤلاء دعوة الخلق إلى الله وإلى طاعته وطاعة رسوله واتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ.

والمقصود أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٦-٥٨). وقال

تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وروى أن بعض الصحابة قال: يا رسول الله هل ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فهو سبحانه سميع قريب مجيب رحيم، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وهو يعلم من أحوال العباد ما لا يعلمه غيره، ويقدر على قضاء حوائجهم التى لا يقدر عليها غيره، ويرحمهم رحمة لا يرحمهم بها غيره.

والشيوخ الذين يقتدى بهم يدلون عليه ويرشدون إليه بمنزلة الأئمة فى الصلاة، يصلون ويصلى الناس خلفهم، وبمنزنة الدليل الذى للحاج هو يدلهم على البيت، وهو وهم جميعاً يحجون إليه، ليس لهم من الإلهية نصيب، بل من جعل لهم شيئاً من ذلك فهو من جنس النصارى والمشركين.

إعتقاد مشايخ الصوفية:

١٥- وذكر فى كتاب الاستقامة الذى نشرته جامعة محمد بن سعود وعلى نفقتها طبعة عام ١٤٠٣ - فى الجزء الأول ص (٨١):

فصل: فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيرى فى رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية، فإنه ذكر من متفرقات

كلامهم ما يستدل به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبى القاسم الذى تلقاه عن أبى بكر بن فورك وأبى إسحاق الأسفراييني.

وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة لكنه مقصر عنه ذلك، ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه وزيادة تخالف ما كانوا عليه.

والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف، وهذا هو الذى كان يجب أن يذكر.

فإن فى الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ (الصوفية) مثل الفضيل بن عياض، وأبى سليمان الداراني، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشى، ومعروف الكرخى، إلى الجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التسترى، وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ.

وقد جمع كلام المشايخ إما بلفظه أو بما فهمه هو غير واحد، فصنف أبو بكر محمد ابن إسحاق الكلاباذى كتاب (التعرف لمذهب التصوف) وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها.

وكذلك معمر بن زياد الأصبهانى شيخ الصوفية، وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السُلمى جامع كلام الصوفية هما فى

ذلك أعلى درجة وأبعد عن البدعة والهوى من أبى القاسم.

وأبو عبد الرحمن- وإن كان أدنى الرجلين- فقد كان ينكر مذهب الكلابية ويبدعهم، وهو المذهب الذى ينصره أبو القاسم، وله فى ذم الكلام مصنف يخالف ما ينصره أبو القاسم وأبو عبد الرحمن أجل من أخذ عنه أبو القاسم كلام المشايخ، وعليه يعتمد فى أكثر ما يحكيه فإن له مصنفات متعددة.

وكذلك عامة المشايخ الذين سماهم أبو القاسم فى رسالته لا يعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكلابية والأشعرية التى نصرها أبو القاسم، بل المحفوظ عنهم خلافها، ومن صرح منهم فإنما يصرح بخلافها، حتى شيوخ عصره الذين سماهم حيث قال:

(فأما المشايخ الذين عاصرناهم والذين أدركناهم وإن لم يتفق لنا لقياهم مثل الأستاذ الشهيد لسان وقته وواحد عصره أبى على الدقاق، والشيخ شيخ وقته أبى عبد الرحمن السلمى، وأبى الحسن على بن جهضم مجاور الحرم، والشيخ أبى العباس القصاب بطوستان، وأحمد الأسود الدينورى، وأبى القاسم الصيرفى بنيسابور، وأبى سهل الخشاب الكبير بها، ومنصور ابن خلف المغربى، وأبى سعيد المالينى وأبى طاهر الجحدرى قدس الله أرواحهم وغيرهم.

فإن هؤلاء المشايخ مثل أبي العباس القصاب له من التصانيف المشهور في السنة، ومخالفة طريقة الكلابية الأشعرية ما ليس هذا موضعه.

وكذلك سائر شيوخ المسلمين من المتقدمين والمتأخرين الذين لهم لسان صدق فى الأمة، كما ذكر الشيخ يحيى بن يوسف الصرصرى ونظمه فى قصائده عن الشيخ على بن إدريس شيخه، أنه سأل قطب العارفين أبا محمد عبد القادر بن عبد الله الجيلى فقال: يا سيدى هل كان لله ولى على غير اعتقاد أحمد ابن حنبل؟ فقال: ما كان ولا يكون.

وكذلك نقل الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردى وحدثنيه عنه الشيخ عز الدين عبد الله بن أحمد بن عمر الفاروقى أنه سمع هذه الحكاية منه، ووجدتها معلقة بخط الشيخ موفق الدين أبى محمد بن قدامة المقدسى: قال السهروردى: (كنت عزمت على أن اقرأ شيئاً من علم الكلام وأنا متردد هل أقرأ (الإرشاد) لإمام الحرمين أو (نهاية الإقدام) للشهرستانى أو كتاب شيخه؟ فذهبت مع خالى أبى النجيب وكان يصلى بجنب الشيخ عبد القادر، قال: فالتفت الشيخ عبد القادر وقال لى: يا عمر! ما هو من زاد القبر، ما هو من زاد القبر، فرجعت عن ذلك) فأخبر أن الشيخ كاشفه بما كان فى قلبه، ونهاه عن الكلام الذى كان ينسب إليه القشيرى ونحوه.

وكذلك حدثنى الشيخ أبو الحسن بن غانم أنه سمع خاله الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأرموى أنه كان له معلم يقرئه وأنه أقرأه اعتقاد الأشعرية المتأخرين، قال: فكنت أكرر عليه، فسمع والدى والشيخ عبد الله الأرمينى، قال فقال: ما هذا يا إبراهيم؟ فقلت: هذا علمنيه الأستاذ، فقال: يا إبراهيم اترك هذا، فقد طفت الأرض واجتمعت بكذا وكذا ولى لله فلم أجد أحداً منهم على هذا الاعتقاد، وإنما وجدته على اعتقاد هؤلاء، وأشار إلى جيرانه أهل الحديث والسنة من المقادسة الصالحين إذ ذاك.

وحدثنى أيضاً الشيخ محمد بن أبى بكر بن قوام أنه سمع جده الشيخ أبا بكر بن قوام قال: إذا بلغك عن أهل المكان الفلانى- سماه لى شيخ محمد - إذا بلغك أن فيهم رجلا مؤمنا أو رجلا صالحاً فصدق، وإذا بلغك أن فيهم ولياً لله فلا تصدق، فقلت: ولم يا سيدى؟ قال: لأنهم أشعرية، وهذا باب واسع، ومن نظر فى عقايد المشايخ المشهورين: مثل الشيخ عبد القادر والشيخ عدى بن مسافر والشيخ أبى البيان الدمشقى وغيرهم وجد من ذلك كثيراً، ووجد أنه من ذهب إلى مذهب شىء من أهل الكلام- وإن كان متأولاً- ففيه نقص وانحطاط عن درجة أولياء الله الكاملين، ووجد أنه من كان ناقصاً فى معرفة اعتقاد أهل السنة، واتباعه ومحبته وبغض ما يخالف ذلك وذمه بحيث يكون خالياً عن اعتقاد كمال السنة واعتقاد البدعة تجده ناقصاً

عن درجة أولياء الله الراسخين فى معرفة اعتقاد أهل السنة واتباع ذلك - ﴿وقد جعل الله لكل شىء قدراً﴾.

وما ذكره أبو القاسم فى رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة، ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين- وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم- ولم يذكر فى كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة، ومع ما فى كتابه من الفوائد فى المقولات والمنقولات ففيه أحاديث وأحاديث ضعيفة بل باطلة، وفيه كلمات مجملة تحتمل الحق والباطل رواية ورأياً، وفيه كلمات باطلة فى الرأى والرواية ﴿وقد جعل الله لكل شىء قدراً﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء: ١٣٥).

فكتبت من تمييز ذلك ما يسره الله، واجتهدت فى اتباع سبيل الأمة الوسط، الذين هم شهداء على الناس دون سبيل من قد يرفعه فوق قدره فى اعتقاده وتصوفه على الطريقة التى هى أكمل وأصح مما ذكره علماً وحالاً وقولاً وعملاً واعتقاداً واقتصاداً، أو يحطه دون قدره فيهما ممن يسرف فى ذم أهل

الكلام أو يذم طريقة التصوف مطلقاً، والله أعلم) أ.هـ.

أصاب الصوفية وأخطأ المعتزلة:

١٦- وقال أيضاً في كتاب الاستقامة الجزء الأول (٩٤):

وقد ذكر أبو القاسم في ترجمة الشيخ أبي علي بن الكاتب وقد صحب أبا علي الروذباري وغيره وتأخر بعد الأربعين وثلاثمائة قال: (المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا).

قلت: (العلم) في لسان الصوفية ووصاياهم كثيراً ما يريدون به الشريعة، كقول أبي يعقوب النهرجوري: (أفضل الأحوال ما قارن العالم) وكقول أبي يزيد: (عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت أشد عليَّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد).

وهذا كقول سهل بن عبد الله التستري: كل فعل تفعله بغير اقتداء طاعة أو معصية فهو عيش النفس، وكل فعل تفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس).

وقال أبو سليمان الداراني: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة.

وقال صاحبه أحمد بن أبى الحوارى: من عمل بلا اتباع سنة فباطل عمله.

وقال أبو حفص النيسابورى: من لم يزن أفعاله وأقواله كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره، فلا تعده فى ديوان الرجال.

وقال الجنيد بن محمد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقال أيضاً: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال أبو عثمان: من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة، قال الله: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور:٥٤).

وقال أبو حمزة البغدادى [١]: من علم الطريق إلى الله سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول وأحواله وأقواله وأفعاله.

ومن لفظ (العلم) فى كلامهم قول أبى عثمان النيسابورى:

---

(١) كل هؤلاء الذين ذكر أقوالهم ابن تيمية هم من كبار أئمة التصوف وسادات المشايخ الصوفية ﷺ.

(والصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم).

ومنه قول أبى الحسين النورى: (من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقتربن منه).

وقال: أعز الأشياء فى زماننا شيئان: عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقته.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي: سمعت جدى أبا عمرو بن نجيد يقول: كل حال لا يكون عن نتيجة علم فإن ضرره أكثر على صاحبه من نفعه.

وسئل عن التصوف فقال: الصبر تحت الأمر والنهى.

وسبب تعبيرهم عن الشريعة بالعلم أن القوم أصحاب إرادة وقصد وعمل وحال هذا خاصتهم، لكن قد يعمل أحدهم تارة بغير العلم الشرعى بل بما يدركه ويجد إرادته فى قلبه، وإن لم يكن ذلك مشروعاً مأموراً به، وهذا كثيراً ما يبتلى به كثير منهم من تقديم علمهم بالذوق والوجد على موجب العلم المشروع، ومن العمل بذوق ليس معه فيه علم مشروع.

ولا ريب أن هذا من اتباع الهوى بغير هدى من الله، وهو مما ذم الله به النصارى الذين يضارعهم فى كثير من أمورهم المنحرفون من الصوفية والعباد، ولهذا جعله سهل من حظ النفس.

ولهذا استضعف أبو يزيد متابعة العلم، فإن مجاهدة هوى النفس يفعلها غالب النفوس مثل عبادات المشركين وأهل الكتاب من الرهبان وعباد الأنداد ونحوهم.

وكل ذلك من هذا الباب.

ولهم من الزهد والمجاهدة فى العبادة ما لا يفعله المسلمون لكنه باطل ليس بمشروع، ولهذا لا ينتج له من النتائج إلا ما يليق به.

والمسلم الصادق إذا عبد الله بما شرع فتح الله عليه أنوار الهداية فى مدة قريبة.

فالمهتدون من مشايخ العباد والزهاد يوصون باتباع العلم المشروع، كما أن أهل الاستقامة من العلم يوصون بعلمهم الذى يسلكه أهل الاستقامة من العباد والزهاد.

وأما المنحرفون من الطائفتين فيعرضون عن المشروع: إما من العلم وإما من العمل، وهما طريق المغضوب عليهم والضالين.

قال سفيان بن عيينة: كانوا يقولون: (من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى).

ولهذا قصد أبو القاسم فى (الرسالة) الرد على هؤلاء، ولما ذكر المشايخ الذين ذكرهم قال: (هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة، متصفين بسلوك طريق الرياضة، متفقين على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آداب الديانة، متفقين على أن من خلا عن المعاملات والمجاهدات ولم يبن أُمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه فيما يدعيه، مفتوناً هلك فى نفسه وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله).

وإذا عرف معنى لفظ (العلم) فى اصطلاحهم فقول أبى على ابن الكاتب: (الصوفية نزهوه من حيث العلم)، أى: من جهة الشرع، وهو الكتاب والسنة، فنزهوه عما نزه عنه نفسه (فأصابوا).

وأما المعتزلة فنزهوه بقياس عقلهم وأهوائهم، وأرادوا أن ينفوا عنه كل صفة موجودة لظنهم أن ذلك تشبيه، ولم يهتدوا إلى أن الخالق يوصف بما يليق به، والمخلوق يوصف بما يليق

به.

وأن الاسم وإن كان متفقاً فالإضافة إلى الله تخصصه وتقيده بما ينبغي عنه مماثلة الخلق.

وهذا الذى ذكره الشيخ أبو على من أن الصوفية يخالفون المعتزلة فأمر متفق عليه، فإن أصول الصوفية لا تلائم نفى الصفات، بل هم أبعد الناس عن الاعتزال فى الصفات والقدر) أ.هـ.

الصوفية يحفظون السالك من الحلول والاتحاد:

١٧- وذكر أيضاً فى كتاب (الاستقامة) الجزء الأول ص (١٤٤):

ثم ذكر أبو القاسم بغير إسناد عن الجنيد أنه قال: (إن أول ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق والقديم من المحدث، ويذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته، فإن من لم يعرف ما لله لم يعترف بالملك لمن استوجبه).

وهذا الكلام حسن يناسب كلام الجنيد، وقد ضمن هذا الكلام التمييز بين المخلوق والخالق، لئلا يقع السالك فى الاتحاد والحلول كما وقع فيه طوائف، وذكر أصلين: التصديق والانقياد، لأن الإيمان قول وعمل، فذكر معرفة الصانع، وذكر

الذل لدعوته والاعتراف بوجوب طاعته، وهذا من أصول أهل السنة وأئمة الشيوخ خصوصاً مشايخ الصوفية.

فإن أصل طريقهم: الإرادة التى هى أساس العمل، فهم فى الإرادات والعبادات والأعمال والأخلاق أعظم رسوخاً منهم فى المقالات والعلوم وهم بذلك أعظم اهتماماً وأكثر عناية، بل من لم يدخل فى ذلك لم يكن من أهل الطريق بحال.

١٨- وذكر أيضاً فى كتاب (الاستقامة) الجزء الأول ص (١٦٣):

والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطىء، كما يوجد فى غيرهم، وليسوا فى ذلك بأجل من الصحابة والتابعين، وليس أحد معصوماً فى كل ما يقوله إلا رسول الله ﷺ.

الصوفية فرقة من الأمة:

١٩- وذكر أيضاً فى كتاب (الاستقامة) الجزء الأول ص (٢١٢):

وهذه المسألة: (مسألة حد الكلام) قد أنكرها عليهما جميع طوائف المسلمين حتى الفقهاء والأصوليون والمصنفون فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد يذكرون الكلام وأنواعه من الأمر والنهى والخبر وما فيه من العام والخاص، وإن الصيغة داخلة فى مسمى ذلك عند جميع

فرق الأمة: أصوليها وفقيهها ومحدثيها وصوفيها [١]، إلا عند هؤلاء فكيف يضاف هذا القول إلى أهل الأصول عموماً وإطلاقاً؟.

٢٠- وذكر أيضاً فى كتاب (الاستقامة) الجزء الأول ص (٢٢١):

ولهذا تجد تنافرا بين الفقهاء والصوفية وبين العلماء والفقراء من هذا الوجه.

والصواب: أن يحمد من حال كل قوم ما حمده الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة، ويذم من حال كل قوم ما ذمه الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة، ويجتهد المسلم فى تحقيق قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾.

قال النبى ﷺ: اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون.

شطحات الصوفية:

٢١- وفى كتاب (الاستقامة) الجزء الثانى ص (١٥):

قال معلقاً على حكايات ذكرها الإمام أبو القاسم القشيرى عن

---

(١) لاحظ كيف جعل الصوفية فرقة من فرق الأمة الإسلامية مثل المحدثين والفقهاء والأصوليين وهذا فى كلامه كثير جداً.

أبي بكر الشبلي وأبي الحسين النوري فيها شطحات.

ومثل هذه الكلمات والحكايات لا تصلح أن تذكر للاقتداء أو سلوك سبيل وطريقة لما فيها من مخالفة أمر الله ورسوله، والذي يصدر عنه أمثال هذه الأمور إن كان معذوراً بقصور في اجتهاده أو غيبة في عقله فليس من اتبعه بمعذور مع وضوح الحق والسبيل، وإن كانت سيئته مغفورة لما اقترن بها من حسن قصد وعمل صالح، فيجب بيان المحمود والمذموم لئلا يكون لبساً للحق بالباطل.

وأبو الحسين النوري وأبو بكر الشبلي- رحمة الله عليهما- كانا معروفين بتغيير العقل في بعض الأوقات، حتى ذهب الشبلي إلى المارستان مرتين، والنوري رحمه الله كان فيه وله، وقد مات بأجمة قصب لما غلبه الوجد حتى أزال عقله.

ومن هذه حاله لا يصلح أن يتبع في حال لا يوافق أمر الله ورسوله، وإن كان صاحبها معذوراً أو مغفوراً له، وإن كان له من الإيمان والصلاح والصدق والمقامات المحمودة ما هو من أعظم الأمور.

فليس هو في ذلك بأعظم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم يُتبعون في طاعة، ولا يذكرون إلا بالجميل الحسن، وما صدر منهم من ذنب أو تأويل

وليس هو مما أمر الله به ورسوله لا يتبعون فيه.

فهذا أصل يجب اتباعه.

غيرة الله على أحبابه:

٢٢- وذكر أيضاً فى كتاب (الاستقامة) الجـزء الثـانى ص (٥٦):

(قال أبو القاسم: واعلموا أن من سنة الحق مع أوليائه أنهم إذا ساكنوا غيراً أو لاحظوا شيئاً أو ضاجعوا بقلوبهم شيئاً شوش عليهم ذلك، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه فارغة عما ساكنوه).

وقال: سمعت السلمي يقول: سمعت أبا زيد المروزى الفقيه يقول: سمعت إبراهيم بن سنان سمعت محمد بن حسان يقول: بينما أنا أدور فى جبل لبنان إذ خرج علينا رجل شاب قد أحرقته السموم والرياح، فلما نظر إليَّ ولى هاربا فتبعته وقلت له: تعظنى بكلمة؟ فقال: إحذروه فإنه غيور لا يحب أن يرى فى قلب عبده سواه.

وقال: سمعت السلمي يقول: سمعت النصر آباذى يقول: الحق غيور، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه.

قلت: هذه الغيرة تدخل فى الغيرة التى وصفها النبى ﷺ إذ

قال: (غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه).

وأعظم الذنوب أن تجعل لله نداً وهو خلقك وتجعل معه إلهاً آخر. والشرك منه جليل ومنه دقيق، فالمقتصدون: قاموا بواجب التوحيد، والسابقون المقربون: قاموا بمستحبه مع واجبه.

ولا شيء أحب إلى الله من التوحيد، ولا شيء أبغض إليه من الشرك. ولهذا كان الشرك غير مغفور، بل هو أعظم الظلم.

وقد قال النبي ﷺ: (مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تارة، وتميلها وتعدلها أخرى، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة).

فالله تعالى يبتلي عبده المؤمن ليطهره من الذنوب والمعايب، ومن رحمته بعبده المخلص أن يصرف عنه ما يغار عليه منه، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف:٢٤) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:٩٩) صرف عنه ما يغار عليه منه كان ذلك من رحمته به واصطفائه إياه، وإن كان في ذلك مشقة عليه، فهو تارة يمنعه مما يكرهه له، وتارة ليطهره منه بالابتلاء، فإذا كان يغار من ذلك، فإذا فعل العبد ما يغار عليه فقد يعاقبه على ذلك بقدر ذنبه.

كما قال أبو القاسم: (وحكى عن السرى أنه قال: كنت أطلب رجلا صديقاً مرة من الأوقات فمررت فى بعض الجبال، فإذا أنا بجماعة زمنى ومرضى وعميان فسألت عن حالهم؟ فقالوا: هـا هنا رجل يخرج فى السنة مرة فيدعو لهـم فيجـدون الشـفاء، فصبرت حتى خرج ودعا لهم فوجدوا الشـفاء، فقفـوت أثـره وتعلقت به وقلت له: بى علة باطنة فما دواؤها؟ فقال: يا سـرى خل عنى فإنه غيور لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه).

وهذا من قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهـاً آخَـرَ فَتَقْعُـدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً﴾ (الإسراء:٢٢) ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهـاً آخَـرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٣) وذكر آيات أخـرى فـى المعنى.

٢٣- وذكر أيضاً فى كتاب (الاستقامة) الجـزء الثـانى ص (١٥٠):

فإن جنس اللذة يتعقب إدراك الملائم المطلـوب لـيس هـو مدرك الملائم المطلوب كما يعتقده بعض أهل الفلسفة والكـلام، وكما غلب على أهل التصوف والعبادة ذكر ذلك.

وغلب على كلام العلماء المتكلمين أهـل النظـر والبحـث والكلام أهل البديهة والنظر والضرورة والدليل والاستدلال.

وكل واحد من هذين الأمرين تحته أجناس وأصناف، بعضها

حق وبعضها باطل.

فلهذا وجب اعتبار ذلك جميعه بالكتاب والسنة، فخير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد.

ولهذا كان أئمة الهدى ممن يتكلم في العلم والكلام أو في العمل والهدى والتصوف يوصون باتباع الكتاب والسنة وينهون عما خرج عن ذلك كما أمرهم الله والرسول.

وكلامهم في ذلك كثير منتشر مثل قول سهل بن عبد الله التستري: (كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل).

٢٤- وذكر أيضاً في كتاب (الاستقامة) الجزء الثاني ص (١٦١):

فإن العقل قد يراد به القوة الغريزية في الإنسان، التي بها يعقل. وقد يراد به نفس أن يعقل ويعي ويعلم.

فالأول: قول الإمام أحمد وغيره من السلف: (العقل غريزة والحكمة فطنة).

والثاني: قول طوائف من أصحابنا وغيرهم: (العقل ضرب من العلوم الضرورية).

وكلاهما صحيح، فإن العقل في القلب مثل البصر في العين يراد به الإدراك تارة، ويراد به القوة التي جعلها الله في العين

يحصل بها الإدراك، فإن كل واحد من علم العبد وإدراكه ومن علمه وحركته حول ولكل منهما قوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولهذا تجد المشايخ الأصحاء من الصوفية يوصون بالعلم ويأمرون باتباعه، كما تجد الأصحاء من أهل العلم يوصون بالعمل ويأمرون به، لما يخاف فى كل طريقة من ترك ما يجب من الأخرى.

ابن تيمية الصوفى:

٢٥- وفى كتاب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) ص (٢٨١) ذكر ابن قيم الجوزية ما نصه:-

فإن المحب يستأنس بذكر محبوبه وكونه فى قلبه لا يفارقه، فهو أنيسه وجليسه لا يستأنس بسواه، فهو مستوحش ممن يشغله عنه.

وحدثنى تقى الدين بن شقير قال: خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً فخرجت خلفه، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد سمعته يتمثل بقول الشاعر (١):-

وأخرج من بين البيوت لعلنى

أحدث عنكم القلب بالسر خالياً

---

(١) هو مجنون ليلى، كما جاء فى تزيين الأسواق للأنطاكى.

كرامات ابن تيمية:

٢٦- وذكر عمر بن على البزّار فى (الأعلام العلية فى مناقب ابن تيمية) ص (٥٦) ما نصه:-

الفصل التاسع: في ذكر بعض كراماته وفراسته:

أخبرنى غير واحد من الثقات ببعض ما شاهده من كراماته وأنا أذكر بعضها على سبيل الاختصار، وأبدأ من ذلك ببعض ما شاهدته:

فمنها اثنين: جرى بينى وبين بعض الفضلاء منازعة فى عدة مسائل وطال كلامنا فيها: وجعلنا نقطع الكلام فى كل دسألة بأن نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها.

ثم إن الشيخ ﷺ حضر، فلما هممنا بسؤاله عن ذلك سبقنا هو وشرع يذكر لنا مسألة مسألة كما كنا فيه وجعل يذكر- غالب- ما أوردناه فى كل مسألة، ويذكر أقوال العلماء ثم يرجح منها ما يرجحه الدليل، حتى أتى على آخر ما أردنا أن نسأله عنه، وبين لنا قصدنا أن نستعمله منه.

فبقيت أنا وصاحبى ومن حضرنا أولا مبهوتين متعجبين مما كاشفنا به وأظهره الله عليه مما كان فى خواطرنا.

وكنت فى خلال الأيام التى صحبته فيها إذا بحث مسألة -

يحضر لي إيراد – فما يستتم خاطري به حتى يشرع فيورده، ويذكر الجواب من عدة وجوه.

وحدثني الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن الحريمي أنه سافر إلى دمشق قال: اتفق أني لما قدمتها لم يكن معي شيء من النفقة البتة وأنا لا أعرف أحداً من أهلها، فجعلت أمشي في زقاق منها كالحائر، فإذا بشيخ قد أقبل نحوي مسرعاً فسلم وهشّ في وجهي ووضع في يدي صُرة فيها دراهم صالحة، وقال لي: أنفق هذه الآن وخلي خاطرك مما أنت فيه، فإن الله لا يضيعك، ثم رَدَّ على أثره كأنه ما جاء إلا من أجلي، فدعوت له وفرحت بذلك، وقلت لبعض من رأيته من الناس: من هذا الشيخ؟ فقال: وكأنك لا تعرفه، هذا ابن تيمية، لي مدة طويلة لم أره اجتاز بهذا الدرب.

وكان جُلّ قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه، فتحققت أن الله أظهره علي وعلى حالي، فما احتجت بعدها إلى أحد مدة إقامتي بدمشق، بل فتح الله عليّ من حيث لا أحتسب واستدللت فيما بعد عليه، وقصدت زيارته والسلام عليه، فكان يكرمني ويسألني عن حالي، فأحمد الله تعالى إليه.

وحدثني الشيخ العالم المقرئ تقي الدين عبد الله بن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد قال: سافرت إلى مصر حين

كان الشيخ مقيماً بها، فاتفق أنى قدمتها ليلا وأنا مثقل مريض، فأنزلت فى بعض الأمكنة، فلم ألبث أن سمعت من ينادى باسمى وكنيتى، فأجبته وأنا ضعيف، فدخل إلىَّ جماعة من أصحاب الشيخ ممن كنت قد اجتمعت ببعضهم فى دمشق فقلت: كيف عرفتم بقدومى وأنا قدمت هذه الساعة؟ فذكروا أن الشيخ أخبرنا بأنك قدمت وأنت مريض وأمرنا أن نسرع بنقلك، وما رأينا أحداً جاء ولا أخبرنا بشيء، فعلمت أن ذلك من كرامات الشيخ ﷺ.

وحدثنى أيضاً قال: مرضت بدمشق إذ كنت فيها مرضة شديدة منعتنى حتى من الجلوس، فلم أشعر إلا والشيخ عند رأسى وأنا مثقل مشتد بالحمى والمرض، فدعا لى وقال: جاءت العافية، فما هو إلا أن فارقنى، وجاءت العافية وشفيت من وقتى.

وحدثنى أيضاً قال: أخبرنى الشيخ ابن عماد الدين المقرىء المطرز قال: قدمت على الشيخ ومعى حينئذ نفقه فسلمت عليه فرد على ورحب بى وأدنانى، ولم يسألنى هل معك نفقة أم لا؟ فلما كان بعد أيام ونفدت نفقتى وأردت أن أخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه فمنعنى وأجلسنى دونهم فلما خلا المجلس دفع إلىَّ جملة دراهم وقال: أنت الآن بغير نفقة فارتفق بيذه فعجبت من ذلك، وعلمت أن الله كشفه على حالى أولا كما

كان معى نفقة، وآخرا لما نفدت واحتجت إلى نفقة.

وحدثنى من لا أتهمه أن الشيخ ﷺ حين نزل المغل بالشام لأخذ دمشق وغيرها، رجف أهلها وخافوا خوفاً شديداً، وجاء إليه جماعة منهم وسألوه الدعاء للمسلمين فتوجه إلى الله، ثم قال: أبشروا، فإن الله يأتيكم بالنصر فى اليوم الفلانى بعد ثالثة حتى ترون الرؤوس معبأة فوق بعض.

قال الذى حدثنى: فو الذى نفسى بيده- أو كما حلف- ما مضى إلا ثلاث مثل قوله حتى رأينا رءوسهم، كما قال الشيخ على ظاهر دمشق معبأة بعضها فوق بعض.

وحدثنى الشيخ الصالح الورع عثمان بن أحمد بن عيسى النساج أن الشيخ ابن تيمية كان يعود المرضى بالبيمارستان (أى المستشفى) بدمشق فى كل أسبوع، فجاء على عادته فعادهم، فوصل إلى شاب منهم فدعا له فشفى سريعاً وجاء إلى الشيخ يقصد السلام عليه.

فلما رآه هش له وأدناه، ثم دفع إليه نفقة وقال: قد شفاك الله، فعاهد الله أن تعجل الرجوع إلى بلدك، أيجوز أن تترك زوجتك وبناتك أربعاً ضيعة وتقيم ههنا؟.

فقبل يده وقال: يا سيدى أنا تائب إلى الله على يدك.

وقال الفتى: عجبت مما كاشفنى به، وكنت قد تركتهم بلا

نفقة، ولم يكن قد عرف بحالي أحد من أهل دمشق.

..وبعد أن نقل كرامات كثيرة قال: (قلت: وكرامات الشيخ ﷺ كثيرة جداً لا يليق بهذا المختصر أكثر من ذكر هذا القدر منها)(١).

التبرك بابن تيمية بعد موته:

٢٧- وذكر أيضاً الحافظ البزار فى (الأعلام العلية) ص (٨٢) فى ذكر موت ابن تيمية فقال:

قالوا: فما هو إلا أن سمع الناس بموته فلم يبق فى دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه وأراده إلا حضر لذلك وتفرغ له، حتى غلقت الأسواق بدمشق وعطلت معايشها حينئذ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم، وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأتراك والأجناد والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام.

قالوا: ولم يتخلف أحد من غالب الناس فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم، بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس

---

(١) لو أن مريداً فى طريقة صوفية ذكر كرامات شيخه أمام أدعياء السلفية اليوم لأنكروها عليه، وزعموا أنه يعبد شيخه، فى حين أنهم لا يخجلون من ذكر هذه الكرامات المنسوبة لشيخهم ابن تيمية!!.

فأهلكوهم. فغسل وكفن.

قالوا: وازدحم من حضر غسله من الخاصة والعامة على الماء المنفصل عن غسله حتى حصل لكل واحد منهم شيء قليل.

ثم أخرجت جنازته، فما هو إلا أن رآها الناس فأكبوا عليها من كل جانب كلا منهم يقصد التبرك بها حتى خشي على النعش أن يحطم قبل أن يصل إلى القبر.

واتفق جماعة من حضر حينئذ وشاهد الناس والمصلين عليه على أنهم يزيدون على خمسمائة ألف.

وقال العارفون بالنقل والتاريخ: لم يسمع بجنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام أحمد بن جنبل ﷺ.

ودفن فى ذلك اليوم ﷺ، وأعاد علينا من بركاته.

...وختمت له الختمات الكثيرة فى الليالى والأيام فى أماكن كثيرة لم يضبط عددها خصوصاً بدمشق المحروسة و مصر والعراق وتبريز والبصرة وغيرها.

حتى جعل كثير من الناس القراءة له ديدنا لهم، وأديرت الربعَةُ الشريفة على الناس لقراءة القرآن المجيد وإهدائه له

وظيفة معتادة(١).

تصوف ابن تيمية عقلى لا ذوقى:

وخلاصة قولنا: إن ابن تيمية لا ذوق له فى التصوف، وقد كتب فيه مجلداً يعتمد فيه على العقل، فكلامه كله عقلى نقله عن قصارى فهمه فى بعض كلام القوم ولا يترجم فيه عن الأحوال والمواجيد التى هى الأذواق، لأن من ذاق عرف، ومثال ذلك كلامه فى المجلد العاشر من فتاويه عن الفناء وهو أمر ذوقى محض فقسمه إلى ثلاث مراتب: الفناء الأول، ثم الفناء الثانى وهو فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، والفناء الثالث وهو الفناء عن وجود السوى، فكان الذى ذكره هو مبلغ علمه وفهمه فى ذلك، ولو رجع ابن تيمية إلى الفتوحات المكية التى يشير إليها فى فتاويه حتى ليخيل لقارئها أنه استوعب ما جاء فيها، ولو وقف على معنى الفناء عند الشيخ الأكبر وعند الصوفية والمحققين من أمثاله وقد ورد ذلك فى الباب العشرين ومائتين من الفتوحات فى معرفة الفناء وأسراره لرجع ابن تيمية عن كلامه، ولازداد علماً ومعرفة بتقسيم الفناء عند رجال الله، ولما وجد كلمة واحدة يردها أو يرد بها ما قاله الشيخ الأكبر أو غيره من السادة الصوفية.

---

(١) ما حدث من تبرك بماء غسل ابن تيمية، وبنعشه، وقراءة القرآن له بعد وفاته، ينكره الذين يزعمون أنهم أتباعه اليوم إن حدث مع غيره!!.

الفصل الثانى

ابن قيم الجوزية

ابن القيم معروف عنه تعصبه فى أمور التصـوف ودقائقـه لأقوال شيخه ابن تيمية كما يشهد لـه بـذلك مؤلفـه (مـدارج السالكين)، وسننقل قطعاً من كلامه فى أبحاث مفيدة ومحققة عن جملة من أمور التصوف إن شاء الله.

والآن نشرع بإذن الله وتوفيقه فى نقل قطع مفيدة للمقصـود من كلام الشيخ السلفى ابن القيم من كتابه (مـدارج السـالكين) الذى هو شرح لكتاب التصوف الكبير (منازل السائرين) للإمـام شيخ الإسلام أبى إسماعيل الهروى الصوفى قدس الله روحه.

المقامات والأحوال:

١- قال ابن القيم فى الجزء الأول منه فى ص ١٣٥ (طبعـة دار الكتاب العربى بلبنان) ما نصه:-

ولأرباب السلوك اختلاف كثير فى عدد المقامات وترتيبهـا، كل يصف منازل سيره وحال سلوكه، ولهم اختلاف فى بعـض منازل السير: هل هى من قسم الأحوال؟ والفـرق بينهمـا: أن المقامات كسبية، والأحوال وهبية.

ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامـات، والمقامـات

نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملا كان أعلى مقاماً وكل من كان أعلى مقاماً كان أعظم حالا.

فمما اختلفوا فيه (الرضا) هل هو حال أو مقام؟

فيه خلاف بين الخراسانيين والعراقيين.

وحكم بينهم بعض الشيوخ فقال: إن حصل بكسب فهو مقام، وإلا فهو حال.

والصحيح فى هذا: أن الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوِّها، كما يلمع البارق ويلوح عن بُعد، فإذا نازلته وباشرها فهى أحوال، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهى مقامات.

وهى لوامع ولوائح فى أولها، وأحوال فى أوسطها، ومقامات فى نهايتها، فالذى كان بارقاً هو بعينه الحال، والذى كان حالا هو بعينه المقام، وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب وظهوره له وثباته فيه.

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب وينزل إلى ما دونه، ثم قد يعود إليه وقد لا يعود.

ومن المقامات ما يكون جامعاً لمقامين، ومنها ما يكون

جامعاً لأكثر من ذلك.

ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات، فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

(فالتوبة) جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونها.

و(التوكل) جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضى، لا يتصور وجودها بدونها.

و(الرجاء) جامع لمقام الخوف والإرادة و.. إلخ.

وكل مقام من هذه المقامات: فالسالكون بالنسبة إليه نوعان:-

أبرار، ومقربون.

فالأبرار فى أذياله، والمقربون فى ذروة سنامه. وهكذا مراتب الإيمان جميعها، وكل من النوعين من لا يحصى تفاوتهم، وتفاضل درجاتهم إلا الله.

وتقسيمهم ثلاثة أقسام: عام، وخاص، وخاص خاص.

إنما نشأ من جعل الفناء غاية الطريق وعلم القوم الذى شمروا إليه وسنذكر ما فى ذلك، وأقسام الفناء محموده

ومذمومه، فاضله ومفضوله، فإن إشارة القوم[1] إليه إن شاء الله ومدارهم عليه.

على أن الترتيب الذى يشير إليه كل مُرتِّب للمنازل لا يخلو عن تحكم ودعوى من غير مطابقة.

فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ودخل فيه كله، فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ومقاماته وأحواله.

وله فى كل عقد من عقوده، وواجب من واجباته أحوال ومقامات، لا يكون موفياً لذلك العقد والواجب إلا بها، وكلما وفّى واجباً أشرف على واجب آخر بعده، وكلما قطع منزلة استقبل أخرى.

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال فى أول بداية سيره، فينفتح عليه من حال المحبة والرضاء والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك فى نهايته، ويحتاج هذا السالك فى نهايته إلى أمور من البصيرة والتوبة والمحاسبة أعظم من حاجة صاحب البداية لها، فليس فى ذلك ترتيب كلى لازم للسلوك.

وقد ذكرنا أن التوبة التى جعلوها من أول المقامات: هى غاية العارفين، ونهاية أولياء الله المقربين، ولا ريب أن حاجتهم

---

(١) أى السادة الصوفية.

إلى المحاسبة فى نهايتهم فوق حاجتهم إليها فى بدايتهم.

فالأولى: الكلام فى هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقاً فى كل مقام ببيان حقيقته وموجبه وآفته المانعة من حصوله والقاطع عنه وذكر عامه وخاصه.

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج فمن تأمله: كسهل ابن عبد الله التسترى، وأبى طالب المكى، والجنيد بن محمد، وأبى عثمان النيسابورى، ويحيى بن معاذ الرازى، وأرفع من هؤلاء طبقة مثل: أبى سليمان الدارانى، وعون بن عبد الله الذى كان يقال له: (حكيم الأمة) وأضرابهما، فإنهم تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلاماً مفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم.

فإنهم كانوا أجلّ من هذا، وهمُّهم أعلى وأشرف، إنما هو حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلوب وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة، ولهذا كلامهم قليل، فيه البركة، وكلام المتأخرين كثير طويل، قليل البركة.

ولكن لا بد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم، إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقى السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم، ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه ولعدوه سلوكاً عامياً وللخاصة سلوك آخر، كما يقول ضلال المتكلمين

وجهلتهم: (إن القوم كانوا أسلم وإن طريقنا أعلم)، وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه: (إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالا منهم بغيره، والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه).

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم.

وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها وضبط قواعدها وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شئ.

فالمتأخرون في شأن القوم في شأن (وقد جعل الله لكل شيء قدرا).

التصوف هو الخلق:

٢- قال ابن القيم في الجزء الثاني منه ص (٣٠٧):-

الدين كله خلق، فما زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وكذلك التصوف.

قال الكتاني: التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف.

وقيل: التخلي من الرذائل والتحلي من الفضائل.

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب.

فإن أصعب ما على طبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التى طبعت النفوس عليها.

وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها، ولكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز كسر جيوش الرياضة وشتتها واستولى على مملكة الطبع.

ثم فى بحث عن أى الطرق أفيد للسالك: الاهتمام بالتحلى بالفضائل أم بالتخلى من الرذائل يقول ابن القيم ما نصه:-

(وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة وقطع الآفات والاشتغال بتنقية الطريقة وبتنظيفها؟ فقال لى جملة كلامه: النفس مثل الباطوس – وهو جب القذر – كلما نبشته ظهر وخرج، لكن وإن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لى: مثال

آفات النفس مثال الحيات والعقارب التى فى طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلهـا انقطــع، ولــم يمكنه السفر قط، ولكن لتكن همتك المسير والإعــراض عنهــا، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المســير فاقتله ثم امض على سيرك.

فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جداً وأثنى على قائله: قــال (أى شيخ الإسلام الهروى الصوفى): (واجتمعت كلمة الناطقين فــى هذا العلم: أن التصوف هو الخلق، وجميع الكلام فيه يدور علــى قطب واحد وهو: بذل المعروف وكف الأذى).

قلت: ومن الناس من يجعلها ثلاثـــة: كــف الأذى واحتمــال الأذى وإيجاد الراحة. ومنهم من يجعلها اثنين – كما قال الشيخ: بذل المعروف وكف الأذى. ومنهم من يردها إلى واحــد: وهــو بذل المعروف، والكل صحيح.

قال: (وإنما يدرك إمكان ذلك فى ثلاثة أشــياء: فــى العلــم والجود والصبر).

فالعلم يرشده إلى مواقع بذل المعروف، والفرق بينـــه وبــين المنكر وترتيبه فى وضعه مواضعه، فلا يضع الغضب موضــع الحلم ولا بالعكس، ولا الإمساك موضع البذل ولا بالعكس، بــل يعرف مواقع الخير والشر ومراتبها و موضع كــل خلــق أيــن

يضعه وأين يحسن استعماله.

والجود يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه، والاستقصاء منها بحقوق غيره، فالجود هو قائد جيوش الخير.

والصبر يحفظ عليه استدامة ذلك، ويحمله علـــى الاحتمـــال وكظم الغيظ وكف الأذى وعدم المقابلة وعلى كل خير كما تقدم.

وهو أكبر العون على نيل كل مطلــوب مــن خيــر الــدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّـلاةِ وَإِنَّهَـا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥) فهذه الثلاثة أشياء: بها يدرك التصوف.

والتصوف: زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية الــنفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى، ومعية مــن تحبه، فإن المرء مع من أحب. كما قال سمنون: ذهب المحبــون بشرف الدنيا والآخرة، فإن المرء مع من أحب. والله أعلم.

فصل

قال: (الدرجة الثالثة: التخلق بتصفية الخلق، ثم الصعود عن تفرقة التخلق، ثم التخلق بمجاوزة الأخلاق).

هذه الدرجة ثلاثة أشياء: أحدها: تصفية الخلق بتكميــل مــا ذكر في الدرجتين قبله فيصفيه من كل شائبة وقــذى ومشــوش،

فإذا فعلت ذلك صعدت من تفرقته إلى جمعيتك على الله.

فإن التخلق والتصوف: تهذيب واستعداد للجمعية، وإنما سماه تفرقة لأنه اشتغال بالغير، والسلوك يقتضي الإقبال بالكلية، والاشتغال بالرب وحده عما سواه.

ثم يصعد إلى ما فوق ذلك: وهو مجاوزة الأخلاق كلها بأن يغيب عن الخلق والتخلق، وهذه الغيبة لها مرتبتان عندهم:

إحداهما: الاشتغال بالله عز وجل عن كل ما سواه.

والثانية: الفناء فى الفردانية التى يسمونها (حضرة الجمع) وهى أعلى الغايات عندهم، وهى وهبية لا كسبية، لكن العبد إذا تعرض وصدق فى الطلب: رجى له الظفر بمطلوبه، والله أعلم.

فصل

ومدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على حرفين، ذكرهما عبد القادر الكيلانى، فقال: (كن مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس).

فتأمل ما أجل هاتين الكلمتين مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك ولكل خلق جميل.

وفساد الخُلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله تعالى، وتوسط النفس بينك وبين خلقه، فمتى عزلت الخلق - حال

كونك مع الله تعالى - وعزلت النفس - حال كونك مع الخلق - فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم [١] وشمروا إليه وحاموا حوله، والله المستعان.

ويذكر عن سفيان الثورى ﷺ أنه قال: (أعز الخلق خمسة أنفس: عالم زاهد، وفقيه صوفى، وغنى متواضع، وفقير شاكر، وشريف سنى).

٣- قال ابن القيم فى الجزء الثانى ص (٣٦٦) ما نصه:-

(وقد ذكر عن الجنيد كلمتان فى الإرادة مجملتان، تحتاج كل منهما إلى تفسير:

الكلمة الواحدة: قال أبو عبد الرحمن السلمى: سمعت محمد ابن مخلد يقول: سمعت جعفراً يقول: سمعت الجنيد يقول: (المريد الصادق غنى من العلماء)، وقال أيضاً: سمعت الجنيد يقول: (إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء).

قلت: إذا صدق المريد وصح عقد صدقه مع الله، فتح الله على قلبه ببركة الصدق وحسن المعاملة مع الله ما يغنيه عن العلوم التى هى نتائج أفكار الناس وآرائهم، وعن العلوم التى

---

(١) أى السادة الصوفية ﷺ.

هى فضلة ليست من زاد القبر، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم التى أفنوا فيها أعمارهم من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها، ومعرفة مفسدات الأعمال وأحكام السلوك، فإن حال صدقه وصحة طلبه يريد ذلك كله بالفعل.

ومثال ذلك: رجل قاعد فى البلد يدأب ليله ونهاره فى علم منازل الطريق وعقباتها وأوديتها ومواضع المتاهات فيها والموارد والمفاوز.

وآخر حملة الوجد وصدق الإرادة على أن ركب الطريق وسار فيها، فصدقه يغنيه عن علم ذلك القاعد، ويريه إياها فى سلوكه عيانا.

وأما يغنيه صدق إرادته عن علم الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهى، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها، وعن علم أحكام الله ورسوله على ظاهره وباطنه، فقد أعاذ الله من هو دون الجنيد من ذلك فضلا عن سيد الطائفة وإمامها (١)، وإنما يقول ذلك قطاع الطريق وزنادقة الصوفية وملاحدتهم الذين لا يرون اتباع الرسول ﷺ شرطا فى الطريق.

---

(١) لاحظ رحمك الله معاملة ابن القيم مع هؤلاء السادة، وقارن بينه وبين أولئك المغرورين السفهاء المنسوبين إلى العلم الذين يحاولون دائما أن يلبسوا مشايخ الصوفية ثيابا ليست لهم.

وأيضا فإن المريد الصادق: يفتح الله على قلبه وينوره بنور من عنده مضاف إلى ما معة من نور العلم يعرف به كثيرا من أمر دينه، فيستغنى به عن كثير من علم الناس، فإن العلم نور، وقلب الصادق ممتلئ بنور الصدق ومعه نور الإيمان، والنور يهدى إلى النور، والجنيد أخبر بهذا عن حاله، وهذا أمر جزئى ليس على عمومه بل صدقه يغنيه عن كثير من العلم.

وأما عن جملة العلم فكلام أبى القاسم الثابت فى ضرورة الصادق إلى العلم، وأنه لا يفلح من لم يكن له علم، وأن طريق القوم مقيدة بالعلم، وأنه لا يحل لأحد أن يتكلم فى الطريق إلا بالعلم فمشهور ومعروف.

قد ذكرنا فيما مضى طرفا منه كقوله: (من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة).

وأيضا فإن علم العلماء الذين أشار إليهم: هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن والسنة.

والمريد الصادق: هو الذى قرأ القرآن وحفظ السنة. والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فهماً فى كتابه وسنة رسوله يغنيه عن تقليد فهم غيره.

وأما قوله- يعنى الجنيد-: (إذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه

على الصوفية ومنعه صحبة القراء).

فالقرّاء فى لسانهم: هم أهل التنسك والتعبد سواء كان يقرأون القرأن أم لا، فالقارئ عندهم: هو الكثير التعبد والتنسك الذى قد قصر همته على ظاهر العبادة دون أرواح المعارف ودون حقائق الإيمان وروح المحبة وأعمال القلوب.

فهمَّتهم كلها إلى العبادة ولا خبر عندهم مما عند أهل التصوف وأرباب القلوب وأهل المعارف، ولهذا قال من قال: (طريقنا تَفَتّ لا تقسر)، فسير هؤلاء بالقلوب والأرواح، وسير أولئك بمجرد القوالب والأشباح، وبين أرواح هؤلاء وقلوبهم وأرواح هؤلاء وقلوبهم نوع تناكر وتنافر، ولا يقدر أحدهم على صحبة النوع الآخر إلا على نوع إغضاء، وتحميل للطبيعة ما تأباه، وهم من جنس ما بينهم وبين ظاهرية الفقهاء من التنافر، ويسمونهم: أصحاب الرسوم، ويسمون أولئك: القراء.

والطائفتان عندهم: أهل ظواهر لا أرباب حقائق.

هؤلاء مع رسوم العلم، وهؤلاء مع رسوم العبادة.

الصوفية والفقراء:

ثم إنهم- فى أنفسهم- فريقان: صوفية وفقراء، وهم متنازعون فى ترجيح الصوفية على الفقراء أو بالعكس أو هما سواء، على ثلاثة أقوال.

- فطائفة رجحت الصوفى، منهم كثير من أهل العراق، وعلى هذا صاحب العوارف وجعلوا نهاية الفقير: بداية الصوفى.

- وطائفة رجحت الفقير، وجعلوا الفقر لب التصوف وثمرته، وهم كثير من أهل خراسان.

- وطائفة ثالثة، قالوا: الفقر والتصوف شئ واحد، وهؤلاء هم أهل الشام.

ولا يستقيم الحكم بين هؤلاء وهؤلاء حتى يتبين حقيقة الفقر والتصوف.

وحينئذ يعلم: هل هما حقيقة واحدة أو حقيقتان، ويعلم راجحهما من مرجوحهما.

وسترى ذلك مبينا إن شاء الله فى منزلتى (الفقر، والتصوف) إذا انتهينا إليهما إن شاء الله ومنَّ بفضله وتوفيقه، فلا حول ولا قوة إلا بالله وبه المستعان وعليه التكلان وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

والمقصود أن المراتب عندهم ثلاثة: مرتبة التقوى وهى مرتبة التعبد والتنسك.

ومرتبة (التصوف) وهى مرتبة التفتّى بكل خلق حسن،

والخروج من كل خلق ذميم.

ومرتبة (الفقر) وهى مرتبة التجرد وقطع كل علاقة تحــول بين القلب وبين الله تعالى، فهذه مراتب طلاب الآخـــرة، ومــن عداهم فمع القاعدين المتخلفين.

فأشار أبو القاسم الجنيد إلى أن المريد لله بصدق، إذا أرد الله به خيرا أوقعه على طائفة الصوفية: يهذبون أخلاقــه ويدلونــه على تزكية نفسه وإزالة أخلاقها الذميمة والاســتبدال بــالأخلاق الحميدة، ويعرفونه منازل الطريق ومفازاتها وقواطعها وآفاتها.

وأما القراء فيدقونه بالعبادة من الصوم والصــلاة دقــا، ولا يذيقونه شيئا من حلاوة أعمال القلوب وتهذيب النفوس، إذ لــيس ذلك طريقهم، ولهذا بينهم وبين أرباب التصوف نوع تنافر كمــا تقدم.

والبصير الصادق: يضرب فى كل غنيمة بسهم، ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها، ولا يتحيز إلى طائفة، وينــأى عــن الأخرى بالكلية أن لا يكون معها شيئ من الحق، فهــذه طريقــة الصادقين.

٤- قال ابن القيم فى الجزء الثانى صفحة (٣٧١) ما نصه:

قال (أى شيخ الإسلام الهروى الصوفى): (الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته، وهى الإجابة لدواعى الحقيقــة طوعــا

وكرها).

يريد: أن هذا العلم[١] مبنى على الإرادة فهى أساسه ومجمع بنائه، وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة، وهى حركة القلب، ولهذا سمى (علم الباطن)، كما أن علم (الفقه) يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح، ولهذا سموه (علم الظاهر).

فهاتان حركتان اختياريتان، وللعبد حركة طبيعية اضطرارية، فالعلم المشتمل على تفاصيلها وأحكامها هو (علم الطب).

فهذه العلوم الثلاثة: هى الكفيلة بمعرفة حركات النفس والقلب وحركات اللسان والجوارح وحركات الطبيعة.

فالطبيب: ينظر فى تلك الحركات من جهة تأثر البدن عنها صحة واعتلالا وفى لوازم ذلك ومتعلقاته.

والفقيه: ينظر فى تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع ونهيه وإذنه وكراهته، ومتعلقات ذلك.

والصوفى: ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده أو قاطعة عنه، ومفسدة لقلبه أو مصححة له.

٥- قال ابن القيم فى الجزء الثانى صفحة (٤٣٨) ما نصه:

---

(١) أى التصوف.

(ومن منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة (الفقر).

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم[1] وأعلاها وأرفعها، بل هى روح كل منزلة، وسرها ولبها وغايتها.

وهذا إنما يعرف بمعرفة حقيقة (الفقر)، والذى تريد به هذه الطائفة (الصوفية) أخص من معناه الأصلى، فإن لفظ (الفقر) وقع فى القرآن فى ثلاثة مواضع:-

أحدهما: قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

والموضع الثانى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ (التوبة:٦٠).

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ (فاطر: ١٥).

فالصنف الأول: خواص الفقراء.

والثانى: فقراء المسلمين خاصهم وعامهم.

والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم غنيهم وفقيرهم

---

(١) أى الصوفية ﷺ.

مؤمنهم وكافرهم.

فالفقراء الموصوفون فى الآية الأولى يقابلهم أصحاب الجدة ومن ليس محصرا فى سبيل الله، ومن لا يكتم فقره تعففا فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثانى.

والصنف الثانى: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر فى سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث: لا مقابل لهم، بل الله وحده الغنى، وكل ما سواه فقير إليه.

ومراد القوم [١] بالفقر: شئ أخص من هذا كله، وهو تحقيق العبودية، والافتقار إلى الله تعالى فى كل حالة.

وهذا المعنى أجل من أن يسمى فقرا- بل هو حقيقة العبودية ولُبُّها، وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وسئل عنه يحى بن معاذ فقال: حقيقته أن لا يستغنى إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها.

يقول: عدم الوثوق بها والوقوف معها، وهو كما قال بعض المشايخ:- شئ لا يضعه الله إلا عند من يحبه، ويسوقه إلى من يريده.

---

(١) المراد: السادة الصوفية ﷺ.

وسئل رويم عن الفقر؟ فقال: إرسال النفس فى أحكام الله.

وهذا إنما يحمد فى إرسالها فى الأحكام الدينية والقدرية التى لا يؤمر بمدافعتها والتحرر منها.

وسئل أبو حفص: بم يقدم الفقير على ربه؟ فقال: ما للفقير شئ يقدم به على ربه سوى فقره.

وحقيقة (الفقر) وكماله كما قال بعضهم وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم (الفقير)؟ فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه، فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له.

وهذا من أحسن العبارات عن معنى (الفقر) الذى يشير إليه القوم، وهو أن يصير كله لله عز وجل، ولا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه، فمتى بقى عليه شئ من أحكام نفسه ففقره مدخول.

ثم فسر ذلك بقوله: (إذا كان له فليس له) أى إذا كان لنفسه فليس لله، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شئ بحيث تكون كذلك لله، وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر.

وهذا (الفقر) الذى يشيرون إليه لا تنافيه الجدة ولا الأملاك، فقد كان رسل الله وأنبياؤه فى ذروته مع جدتهم وملكهم كإبراهيم الخليل ﷺ كان أبا الضيفان، وكانت له الأموال والمواشى، وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام، وكذلك كان نبينا ﷺ، كان كما قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (الضحى:٨) فكانوا أغنياء فى فقرهم، فقراء فى غناهم.

(فالفقر) الحقيقى: دوام الإفتقار إلى الله فى كل حال، وأن يشهد العبد- فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة- فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتى للعبد وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالا وإلا فهو حقيقة.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه(١):-

والفقر لى وصف ذات لازم أبدا

كما الغنى أبدا وصف له ذاتى

وله آثار وعلاقات وموجبات وأسباب أكثر إشارت القوم إليها، كقول بعضهم: (الفقير لا تسبق همته خطوته)، يريد أنه

---

(١) لاحظ أن ابن القيم يلقب ابن تيمية بشيخ الإسلام ويقول: (قدس الله روحه)، وأتباعهما ينكرون أى أدب مع رسول الله أو مسع أهل بيته كالسيادة، وكذلك ينكرون قول رضى الله عنهم للأولياء والصالحين!!.

ابن حاله ووقته، فهمته مقصورة على وقته لا تتعداه.

وقيل: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

وقال الشبلى: حقيقة الفقر أن لا يستغنى بشئ دون الله.

وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذى هو فيه.

وقال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الإفتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة فى جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

وقيل: من حكم الفقر أن لا تكون له رغبة، فإذا كان ولابد فلا تجاوز رغبته كفايته.

وقيل: الفقير لا يَملك ولا يُملك، وأتم من هذا (من يملك ولا يملكه مالك).

وقيل: من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيرا، ومن أراده لئلا يشتغل عن الله بشئ مات غنيا.. (وفى المدارج فى هذا المقام بحث مفصل عن الفقر فارجع إليه إن شئت).

ثم شرح ابن القيم عبارات شيخ الإسلام الهروى الصوفى حيث ذكر فيها درجات الفقر حتى قال:-

قال: (الدرجة الثالثة: الاضطرار والوقوع في يد التقطع الوجداني أو الاحتباس في بيداء قيد التجرد، وهذا فقر الصوفية)..

قال ابن القيم: وقوله: (وهذا فقر الصوفية) قد يفهم منه: أن التصوف أعلى عنده من الفقر، فإن هذه الدرجة الثالثة- التي هي أعلى درجات الفقر عنده هي من بعض مقامات الصوفية.

وطائفة تنازعه في ذلك وتقول: التصوف دون هذا المقام بكثير، والتصوف وسيلة إلى هذا الفقر، فإن التصوف خلق، وهذا الفقر حقيقة وغاية لا غاية وراءها.

وقد تقدم ذكر الخلاف بين القوم في هذه المسألة، وحكينا فيها ثلاثة أقوال: هذين.

والثالث: أن لايفضل أحدهما على الآخر، فإن كل واحد منهما لا تتم حقيقته إلا بالآخر، وهذا قول الشاميين. والله أعلم.

الفناء عند الصوفية:

٦- قال ابن القيم في الجزء الأول صفحة (١٥٤)، وفي فصل مستقل يبحث عن الفناء عند الصوفية ويذكر أقسامه ومراتبه وممدوحه ومذمومه ، ومتوسطه يذكر فيه ما نصه:

(وأما الفناء عن شهود السوى فهو الفناء الذي يشير إليه أكثر

الصوفية المتأخرين ويعدونه غاية، وهو الذى بنى عليه أبو إسماعيل الأنصارى كتابه وجعله الدرجة الثالثة فى كل باب من أبوابه.

وليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم، فحقيقته: غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته أيضا عن شهوده ونفسه لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده، وبمحبوبه عن حبه، وبمشهوده عن شهوده.

وقد يسمى حال مثل هذا سكرا واصطلاما ومحوا وجمعا.

وقد يفرقون بين معانى هذه الأسماء، وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به، فيظن أنه اتحد به وامتزج، بل يظن أنه هو نفسه، كما يحكى أن رجلا ألقى محبوبه نفسه فى الماء فألقى المحب نفسه وراءه، فقال له: ما الذى أوقعك فى الماء؟ فقال: غبت بك عنى فظننت أنك أنى.

وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطا فى ذلك، وأن الحقائق متميزة فى ذاتها فالرب رب، والعبد عبد، والخالق بائن عن المخلوقات، ليس فى مخلوقاته شئ من ذاته، ولا فى ذاته شئ من مخلوقاته.

ولكن فى حال السكر والمحو والاصطلام والفناء قد يغيب

عن هذا التمييز، وفى هذه الحال يقول صاحبها ما يحكى عن أبى يزيد أنه قال: (سبحانى) أو (ما فى الجبة إلا الله) ونحو ذلك من الكلمات التى لو صدرت عن قائلها، وعقله معه لكان كافرا.

ولكن مع سقوط التمييز والشعور قد يرتفع عنه قلم المؤاخذة.

وهذا الفناء يحمد منه شئ، ويذم منه شئ، ويعفى منه عن شئ.

فيحمد منه فناؤه عن حب ما سوى الله وعن خوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به والالتفات إليه بحيث يبقى دين العبد ظاهرا وباطنا كله لله.

وأما عدم الشعور والعلم بحيث لا يفرق صاحبه بين نفسه وغيره، ولا بين الرب والعبد مع اعتقاده الفرق، ولا بين شهوده ومشهوده، بل لا يرى السوى ولا الغير فهذا ليس بمحمود ولا هو وصف كمال ولا هو مما يرغب فيه ويؤمر به.

بل غاية صاحبه أن يكون معذورا لعجزه وضعف قلبه وعقله عن احتمال التمييز والفرقان، وإنزال كل ذى منزلة منزلته موافقة لداعى العلم ومقتضى الحكمة وشهود الحقائق على ما هى عليه، والتمييز بين القديم والمحدث والعبادة والمعبود، فينزل العبادة منازلها ويشهد مراتبها، ويعطى كل مرتبة منها حقها من العبودية ويشهد قيامه بها.

فإن شهود العبد قيامه بالعبودية أكمل فى العبودية من غيبته عن ذلك، فإن أداء العبودية فى حال غيبة العبد عنها وعن نفسه بمنزلة أداء السكران والنائم، وأداؤها فى حال كمال يقظته وشعوره بتفاصيلها، وقيامه بها أتم وأكمل وأقوى عبودية.

وليس أيضا هذه الحال بلازمة لجميع السالكين، بل هى عارضة لبعضهم منهم: من يبتلى بها كأبى يزيد وأمثاله، ومنهم من لا يبتلى بها، وهى أكمل وأقوى.

فإن الصحابة رضى الله عنهم وهم سادات العارفين وأئمة الواصلين المقربين وقدوة السالكين لم يكن منهم من ابتلى بذلك مع قوة إرادتهم وكثرة منازلاتهم ومعاينة ما لم يعاينه غيرهم ولا شم له رائحة ولم يخطر على قلبه، فلو كان هذا الفناء كمالا لكانوا هم أحق به وأهله، وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم.

ولا كان هذا أيضا لنبينا ﷺ، ولا حالا من أحواله ﷺ، ولهذا فى ليلة المعراج لما أسرى به وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى لم تعرض له هذه الحال، بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ (النجم: ١٧،١٨). وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠). وقال ابن عباس: (هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به)، ومع هذا

فأصبح بينهم لم يتغير عليه حاله، ولم يعرض لــه صــعق ولا غشي يخبرهم عن تفصيل ما رأى، غير فانٍ عن نفسه ولا عــن شهوده، ولهذا كانت حاله أكمل من حال موسى بــن عمــران- صلى الله عليهما وسلم- لما خر صعقا حين تجلى ربــه للجبــل وجعله دكا.

فصل

وهذا الفناء له سببان: أحدهما: قوة الوارد وضعف المورود وهذا لا يذم صاحبه.

الثاني: نقصان العلم والتمييز، وهذا يذم صاحبه، لاسـيما إذا أعرض عن العلم الذي يحول بينه وبين هذا الفنــاء وذمــه وذم أهله، ورأى ذلك عائقا من عوائق الطريق فهــذا هــو المــذموم المخوف عليه.

ولهذا عظمت وصية القوم[1] بالعلم، وحذروا من السلوك بلا علم، وأمروا بهجر من هجر العلم وأعرض عنه، وعدم القبــول منه لمعرفتهم بمآل أمره وسوء عاقبته في سيره، وعامــة مــن تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم وســيره علــى جادة الذوق والوجد، ذاهبة به الطريق كل مذهب، فهــذا فتنتــه،

---

(١) أي السادة الصوفية رضي الله عنهم.

والفتنة به شديدة. وبالله التوفيق.

٧- قال ابن القيم فى الجزء الأول صفحة (١٩٨):

يقول فى موضع حيث اختلف مع شيخ الإسلام الهروى الصوفى فى قوله فى (منازل السائرين): (إن من حقائق التوبة: طلب إعذار الخليقة) وناقشه، ثم قال ما نصه:

(ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام إهدار محاسنه وإساءة الظن به، فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم فى طريق السلوك، المحل الذى لا يجهل، وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، والكامل من عُدَّ خطؤه، ولاسيما فى مثل هذا المجال الضنك والمعرك الصعب الذى زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام، وافترقت بالسالكين فيه الطرقات، وأشرفوا- إلا أقلهم- على أودية الهلكات. وكيف لا؟ وهو البحر الذى تجرى سفينة راكبه فى موج كالجبال، والمعرك الذى تضاءلت لشهوده شجاعة الأبطال، وتحيرت فيه عقول ألبّاء الرجال ووصلت الخليقة إلى ساحله يبغون ركوبه.

فمنهم: من وقف مطرقا دهشا لا يستطيع أن يملأ منه عينه ولا ينقل عن موقفه قدمه، قد امتلأ قلبه بعظمة ما شاهد منه فقال: الوقوف على الساحل أسلم وليس بلبيب من خاطر بنفسه.

ومنهم: من رجع علي عقبيه لما سمع هديره وصوت أمواجه، ولم يطق نظرا إليه.

ومنهم: من رمى بنفسه فى لجته تخفضه موجة وترفعه أخرى.

فهؤلاء الثلاثة على خطر، إذ الواقف على الساحل عرضة لوصول الماء تحت قدميه، والهارب- ولو جدَّ فى الهرب- فما له مصير إلا إليه، والمخاطر ناظر إلى الغرقى كل ساعة بعينيه وما نجى من الخلق إلا الصنف الرابع، وهم الذين انتظروا موافاة سفينة الأمر، فلما قربت منهم ناداهم الربان: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (هود: ٤١). فهى سفينة نوح حقا وسفينة من بعده من الرسل، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق[١].

فركبوا سفينة الأمر بالقدر، تجرى بهم فى تصاريف أمواجه على حكم التسليم لمن بيده التصرف فى البحار، فلم يك إلا غفوة

---

(١) وقد بين رسول الله ﷺ أن سفينة النجاة للأمة الإسلامية هم أهل البيت الكرام فقال: (مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج٢ ص٢٤٣ وقال صحيح على شرط مسلم، وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال ج٦ ص٢١٦، والهيثمى فى مجمع الزوائد ج٩ ص١٦٨، والبزار، والطبرانى فى الثلاثة، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ج١٢ ص١٩.

حتى قيل للأرض الدنيا وسمائها: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ (هود: ٤٤) دار القرار.

والمتخلفون عن السفينة- كقوم نوح- أغرقوا ثم أحرقوا، ونودى على رؤوس العالمين: ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤)، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: ١١٨)، ثم نودى بلسان الشرع والقدر تحقيقا لتوحيده وإثباتا لحجته وهو أعدل العادلين: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٩).

فصل

وراكب هذا البحر فى سفينة الأمر، وظيفته: مصادمة أمواج القدر ومعارضتها بعضها ببعض وإلا هلك، فيرى القدر بالقدر، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين.

وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلانى: (الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فانفتحت لى فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر لا من يكون مستسلما مع القدر).

ولا تتم مصالح العباد فى معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض، فكيف فى معادهم؟.

والله تعالى أمر أن تدفع السيئة- وهى من قدره- بالحسنة- وهى من قدره-، وكذلك الجوع من قدره وأمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره.

ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات: مات عاصيا، وكذلك البرد والحر والعطش: كلها من أقداره وأمر بدفعها بأقدار تضادها، والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبى ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا: يا رسول الله! أرأيت أدوية نتداوى بها، ورُقى نسترقى به، وتُقى نتقى بها هل تردُّ من قدر الله شيئا؟ قال: (هى من قدر الله).

وفي الحديث الآخر: (إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض).

وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر وترك دفعه بقدر مثله وهو الجهاد الذى يدفعون به قدر الله بقدره؟

وكذلك المعصية إذا قُدِّرت عليك وفعلتها بالقدر، فادفع موجبها بالتوبة النصوح وهى من القدر.

شطحات الصوفية:

٨- قال ابن القيم فى الجزء الثانى صفحة (٣٩):

وذلك بعد أن عارض شيخ الإسلام الهروى الصوفى فى بعض آرائه قال ما نصه:-

وهذا وجه كلامه، وحمله على أحسن المحامل.

فيقال: هذا ونحوه من الشطحات التى ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ، وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس:

إحداهما: حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بهم مطلقا، وهذا عدوان وإسراف[1].

فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملتهم، عن رؤية عيوب

---

(١) وهذا ما تفعله الوهابية الذين يزعمون أنهم أتباع لابن تيمية وابن القيم.

شطحاتهم ونقصانها فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول، وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذى حق حقها، وأنزلوا كل ذى منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد.

وهذه الشطحات ونحوها هى التى حذر منها سادات القوم، وذموا عاقبتها وتبرءوا منها، حتى ذكر أبو القاسم القشيرى فى رسالته: أن أبا سلمان الدارانى رؤى بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى، وما كان شئ أضر علىَّ من إشارات القوم.

وقال أبو القاسم: سمعت أبا سعيد الشحام يقول: رأيت أبا سهل الصعلوكى فى المنام فقلت له: أيها الشيخ، فقال: دع التشييخ، فقلت: وتلك الأحوال؟ فقال: لم تغن عنا شيئا، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى بمسائل كانت تسأل عنها العجائز.

وذكر عن الجريرى: أنه رأى الجنيد فى المنام بعد موته فقال: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات، وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات.

وقال أبو سليمان الدارانى: تعرض على النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل: الكتاب والسنة.

وقال الجنيد: مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في طريقنا.

هذا إلى غير ذلك من الأقوال التى وردت عنهم رضى الله عنهم.

ابن القيم يتأدب مع شيخه الصوفى:

٩- قال ابن القيم فى الجزء الثانى صفحة (٥٢) ما نصه:-

(والله يشكر لشيخ الإسلام(١) سعيه، ويعلى درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه فى محل كرامته، فلو وجد مريده (٢) سعة وفسحة فى ترك الإعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل.

كيف وقد نفعه الله بكلامه، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناما.

وهذا غاية جهد المقل فى هذا الموضع، فمن كان عنده فضل

---

(١) هو شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى الصوفى.

(٢) يعنى به ابن القيم نفسه.

علم فليجذبه أو فليعذر ولا يبادر إلى الإنكار، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان وهو يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ (النمل: ٢٢). وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد، والله المستعان وهو أعلم).

ابن القيم يمدح طريق التصوف:

١٠- قال ابن القيم في الجزء الثالث صفحة (٣٣٠) ما نصه:-

(فاعلم أن في لسان القوم[١] من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص، وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ما ليس في لسان أحد من الطوائف غيرهم، ولهذا يقولون: (نحن أصحاب إشارة ولا أصحاب عبارة)، و(الإشارة لنا والعبارة لغيرنا).

وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معنى لا فساد فيه.

وصار هذا سببا لفتنة طائفتين: طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عباراتهم فبدعوهم وضللوهم.

وطائفة: نظروا إلى مقاصدهم ومغزاهم فصوَّبوا تلك

---

(١) يعني السادة الصوفية.

العبارات وصححوا تلك الإشارات، فطالب الحق يقبله ممن كان، ويرد ما خالفه على من كان.

١١- قال ابن القيم فى الجزء الثالث صفحة (١٥١) ما نصه:

(فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التى وقع اصطلاح القوم عليها، فإنها أصل البلاء، وهى مورد الصديق والزنديق، فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ (اتصال، وانفصال، ومسامرة، ومكالمة، وأنه لا وجود فى الحقيقة إلا وجود الله، وأن وجود الكائنات خيال ووهم، وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره)، فاسمع منه ما يملأ الآذان من حلول واتحاد وشطحات.

والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها، وأرادوا بها معانى صحيحة فى نفسها فغلط الغالطون فى فهم ما أرادوه، ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم).

١٢- قال ابن القيم فى الجزء الأول صفحة (٤٣٠):

وقد أتى بفصل خاص فى بيان مشاهد الخلق وذكر فيه ثلاثة عشر مشهدا أربعة منها للمنحرفين، والبقية لأهل الاستقامة، وقال: عن هذا الفصل: (إنه من أجل فصول الكتاب وأنفعها لكل أحد، وهو حقيق بأنى تثنى عليه الخناصر)، وقال: (لعلك لا

تظفر به فى كتاب سواه).

قال فيه فى نهاية المشهد الثانى عشر ما نصه:

(فإذا استبصر فى هذا المشهد وتمكن من قلبه وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقى منه إلى:

المشهد الثالث عشر

وهو الغاية التى شمر إليها السالكون، وأمّها القاصدون، ولحظ إليها العاملون، وهو مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقائه والابتهاج به والفرح والسرور به، فتقر به عينه ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه ويستولى ذكره على لسان مُحبه وقلبه فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية، وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصى.

قد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب فى المحبة لا يعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والإفتقار، فإذا هو

أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أنه وضعت قدمى فى عتبته فإذا هو- سبحانه- قد أخذ بيدى وأدخلنى عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ يقول: من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد، ولا يضر مع الذل والإفتقار بطالة، يعنى بعد فعل الفرائض.

والقصد أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابا من المحبة، لكن الذى يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا وتفريطا وذنبا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر.

والسالك بهذه الطريق غريب فى الناس، وهم فى واد وهو فى واد.

وهى تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه

السُعاة فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب، بين هو يحـدثك إذا به قد سبق الطرف وفات السُعاة، فالله المستعان، وهو خيـر الغافرين.

أهمية العلم عند الصوفية:

١٣- قال ابن القيم فى الجزء الثانى صفحة (٤٦٤):-

ومن منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة العلم.

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه فـى الطريق إلى آخر قدم ينتهى إليه فسلوكه على غير طريق.

وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها، وهذا إجماع من الشيوخ العارفين.

ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق مـنهم، ونـواب إبلـيس وشُرطه.

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ.

وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى بـه فـى هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة.

وقال أبو حفص رحمه الله: من لم يزن أفعاله فى كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا يعد فى ديوان الرجال.

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله: ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس، وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء فهو عذاب على النفس.

وقال السرى: التصوف اسم لثلاثة معان: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

وقال أبو يزيد: عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئا أشد علىَّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة إلا فى تجريد التوحيد.

وقال مرة لخادمه: قم بنا إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره، فلما دخلا عليه المسجد تنخم ثم رمى بها نحو القبلة، فرجع ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه؟.

وقال: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤونة النساء

ثم قلت: كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا، ولم يسأله رسول الله ﷺ؟ ولم أسأله، ثم إن الله كفانى مؤنة النساء حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط.

وقال: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات إلى أن يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

وقال أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله: من عمل عملا بلا اتباع سنة فباطل عمله.

وقال أبو عثمان النيسابورى رحمه الله: الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، ومع أولياء الله بالاحترام والخدمة، ومع الأهل بحسن الخلق، ومع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثما، ومع الجهال بالدعاء لهم والرحمة.

زاد غيره: ومع الحافظين باكرامهما واحترامهما وإملائهما ما يحمدانك عليه، ومع النفس بالمخالفة، ومع الشيطان بالعداوة.

وقال أبو عثمان أيضا: من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور:٥٤).

وقال أبو الحسين النورى: من رأيتموه يدعى مع الله عز

وجل حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربوا منه.

وقال محمد بن الفضل البامجى من مشايخ القوم الكبار: ذهاب الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون، ويعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلمون ما يعملون، ويمنعون الناس من التعلم والتعليم.

وقال عمرو بن عثمان المكى: العلم قائد والخوف سائق والنفس قرون بين ذلك، جموح خدَّاعة روَّاغة، فاحذرها وراعيها بسياسة العلم وسُقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد.

وقال أبو سعيد الخراز: كل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل.

وقال أبن عطاء: من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب فى أوامره وأفعاله وأخلاقه.

وقال: كل ما سألت عنه فاطلبه فى مفازة العلم، فإن لم تجده ففى ميدان الحكمة، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان.

وألقى بنان الحمال بين يدى السبع، فجعل السبع يشمه ولا يضره، فلما أخرج قيل له: ما الذى كان فى قلبك حين شمك السبع؟ قال: كنت أتفكر فى اختلاف العلماء فى سؤر السباع.

وقال أبو حمزة البغدادى- من أكابر الشيوخ وكان أحمد بن حنبل يقول له فى المسائل: ما تقول يا صوفى؟-: (من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ فى أحواله وأقواله وأفعاله.

ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطى يوم الجمعة إلى الجامع، فانقطع شسع نعله، فأصلحه له رجل صيدلانى، فقال: تدرى لم انقطع شسع نعلى؟ فقال: لا، فقال: لأنى ما اغتسلت للجمعة، فقال: ههنا حمام تدخله؟ فقال: نعم، فدخل واغتسل.

وقال أبو إسحاق الرقى من أقران الجنيد: علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة رسوله ﷺ.

وقال أبو يعقوب النهرجورى: أفضل الأحوال ما قارن العلم.

وقال أبو القاسم النصر آباذى- شيخ خراسان فى وقته-: أصل التصوف: ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم كرامات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

وقال أبو بكر الطمستانى- من كبار شيوخ الطائفة-: الطريق واضح، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا، وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم، فمن صحب الكتاب

والسنة ونغرب عن نفسه وعن الخلق وهـاجر بقلبـه إلـى الله فهو الصادق المصيب.

وقال أبو عمرو بن نجيد: كل حال لا يكون عن نتيجة علـم فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه، وقال: التصوف: الصبر تحت الأوامر والنواهى.

وكان بعض أكابر الشيوخ المتقدمين يقول: يا معشر الصوفية لا تفارقوا السواد فى البياض فتهلكوا.

الفراسة عند الصوفية:

١٤- قال ابن القيم فى الجزء الثانى صفحة (٤٨٣):

(ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) منزلة الفراسة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِلْمُتَوَسِّـمِينَ﴾ (الحجر: ٧٥). قال مجاهد رحمه الله: المتفرسين، وقـال ابـن عباس رضى الله عنهما: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافى بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر فـى آثـار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم أورثه فراسة وعبرة وفكرة..

و(الفراسة) ثلاثة أنواع: إيمانية: وهى المتكلم فيها فى هـذه

المنزلة.

وسببها: نور يقذفه الله فى قلب عبده يفرق بـه بـين الحـق والباطل، والحالى والعاطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفى ما يضاده، يثـب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة، لكـن الفريسـة فعيلـة بمعنى مفعولة.

وبناء (الفراسة) كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه (الفراسة) على حسب قوة الإيمان، فمـن كـان أقـوى إيمانا فهو أحدُّ فراسة.

قال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسـة نظـر بنـور الحق، وتكون مواد علمه مع الحق بلا سهو ولا غفلة، بل حكـم حق جرى على لسان عبده.

وقال الواسطى: الفراسة شعاشع أنوار لمعت فـى القلـوب، وتمكن معرفة جملة السرائر فى الغيوب من غيب إلـى غيـب، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق إياها فيتكلم عن ضمير الخلق.

وقال الدارانى: الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب، وهـى من مقامات الإيمان. وسئل بعضهم عن الفراسة؟ فقـال: أرواح

تتقلب فى الملكوت، فتشرف على معانى الغيوب، فتنطق عن أسرار الخلق نطق مشاهدة لا نطق ظن وحسبان.

وقال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرمانى حاد الفراسة لا يخطئ، ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بالمراقبة، وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته.

وقال أبو جعفر الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس.

وقال أبو حفص النيسابورى: ليس لأحد أن يدعى الفراسة، ولكن يتقى الفراسة من الغير، لأن النبى ﷺ قال: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله). ولم يقل (تفرسوا)، وكيف يصح دعوى الفراسة لمن هو فى محل اتقاء الفراسة.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جراسيس القلوب، يدخلون فى قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون.

وكان الجنيد يوما يتكلم على الناس، فوقف عليه شاب نصرانى متنكرا ، فقال: أيها الشيخ ما معنى قول النبى ﷺ: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)، فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه إليه وقال: أسلم، فقد حان وقت إسلامك، فأسلم

الغلام.

ويقال فى بعض الكتب القديمة: (إن الصديق لا تخطئ فراسته)، وقال ابن مسعود ﷺ: (أفرس الناس ثلاثة: العزيز فى يوسف حيث قال لمرأته: ﴿أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ (يوسف: ٢١) وابنة شعيب حين قالت لأبيها فى موسى: ﴿استأجره﴾ (القصص:٢٦) وأبو بكر فى عمر رضى الله عنهما حيث استخلفه).

وفى رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ (القصص:٩).

وكان الصديق ﷺ أعظم الأمة فراسة وبعده عمر بن الخطاب ﷺ، ووقائع فراسته مشهورة فإنه ما قال لشئ: (أظنه كذا) إلا كان كما قال. ويكفى فى فراسته: موافقته ربه فى المواضع المعروفة[1].

ومر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه فقال: لقد أخطأ ظنى أو أن هذا كاهن، أو كان يعرف الكهانة فى الجاهلية، فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر، فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين ما

---

(١) وبرغم هذه المكانة لسيدنا أبى بكر ﷺ فإنه يقول للإمام على كرم الله وجهه: (أنت لكل معضلة يا أبا الحسن)، ويقول سيدنا عمر ﷺ: (لولا على لهلك عمر).

استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتنى به، فقال له عمر ﷺ: ما كنا عليه فى الجاهلية أعظم من ذلك، ولكن أخبرنى عما سألتك عنه، فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، كنت كاهنا فى الجاهلية، ثم ذكر القصة.

وكذلك عثمان بن عفان ﷺ صادق الفراسة، وقال أنس بن مالك ﷺ: دخلت على عثمان بن عفان ﷺ وكنت رأيت امرأة فى الطريق تأملت محاسنها، فقال عثمان ﷺ: يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر فى عينيه، فقلت: أوحى بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

وفراسة الصحابة رضى الله عنهم أصدق الفراسة.

وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور الذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ، قال الله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢)، كان ميتا بالكفر والجهل فأحياه الله بالإيمان والعلم، وجعل له بالقرآن والإيمان نورا يستضئ به فى الناس على قصد السبيل ويمشى به فى الظلم.. والله أعلم.

وللفراسة سببان: أحدهما: جودة ذهن المتفرس وحدة قلبه وحسن فطنته. والثانى: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس

فيه.

فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطئ للعبد فراسة، وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة، وإذا قوى أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بين بين.

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة، وله الوقائع المشهورة، وكذلك الشافعى رحمه الله، وقيل: إن له فيها تآليف.

ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أمورا عجيبة، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم.

ووقائع فراسته تستدعى سفرا ضخما:-

أخبر أصحابه بدخول التتار الشام سنة تسع وتسعين وستمائة، وأن جيوش المسلمين تُكَسر، وأن دمشق لا يكون بها قتل عام ولا سبى عام، وأن كلب الجيش وحدته فى الأموال، وهذا قبل أن يهَّم التتار بالحركة.

ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنين وسبعمائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام، أن الدائرة والهزيمة عليهم، وأن الظفر للمسلمين، وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينا ، فيقال له: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا. وسمعته يقول ذلك.

قال: فلما أكثروا على، قلت: لا تكثروا، كتب الله تعالى فى اللوح المحفوظ: أنهم مهزومون فى هذه الكرة وأن النصر لجيوش الإسلام.

قال: وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو.

وكانت فراسته الجزئية فى خلال هاتين الواقعتين مثل المطر.

وأخبرنى غير مرة بأمور باطنة تختص بى مما عزمت عليه، ولم ينطق به لسانى.

وأخبرنى ببعض حوادث كبار تجرى فى المستقبل ولم يعين أوقاتها، وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها.

وما شاهد كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته، والله أعلم.

الوجد والوقت والمعرفة عند الصوفية:

١٥- وقال ابن القيم فى الجزء الثالث صفحة (٦٨) فى ذيل بحث مفصل عن منزلة (الوجد):

فالمراتب أربعة: أضعفها: (التواجد) وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء..

والمرتبة الثانية: (المواجيد) وهى نتائج الأوراد وثمرتها.

والمرتبة الثالثة: (الوجد) وهو ثمرة أعمال القلوب من الحب في الله والبغض فيه، كما جعله النبى ﷺ ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما.

وثمرة الحب فيه وكراهة عوده فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار، فهذا (الوجد) ثمرة هذه الأعمال القلبية التى هى الحب فى الله والبغض فى الله.

والمرتبة الرابعة: (الوجود) وهى أعلى ذروة مقام الإحسان، فمن مقام الإحسان يرقى إليه، فإنه إذا غلب على قلبه مشاهدة معبوده حتى كأنه يراه- وتمكن فى ذلك- صار له ملكة أخمدت أحكام نفسه وتبدل بها أحكاما أخرى وطبيعة ثانية، حتى كأنه أنشئ نشأة أخرى غير نشأته الأولى وولد ولادا جديدا.

ومما يذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال: (يا بنى إسرائيل لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين).

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكر ذلك ويفسره: بأن الولادة نوعان: أحدهما هذه المعروفة، والثانية: ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفس وظلمة الطبع.

قال: وهذه الولادة لما كانت بسبب الرسول كان كالأب للمؤمنين وقد قرأ أبى بن كعب رضي الله عنه: ﴿النبى أولى بالمؤمنين من

أنفسهم﴾ وهو أب لهم.

قال: ومعنى هذه الآية والقراءة فى قوله تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ (الأحزاب:٦) إذ ثبوت أمومة أزواجه لهم: فرع عن ثبوت أبوته.

قال: فالشيخ والمعلم والمؤدب أب الروح، والوالد أب الجسم.

١٦- قال ابن القيم فى الجزء الثالث صفحة (١٢٨):-

(قوله: (الوقت: ظرف الكون) الوقت: عبارة عن مقارنة حادث لحادث عند المتكلمين، فهو نسبة بين حادثين.

فقوله: (ظرف الكون) أى وعاء التكوين، فهو الوعاء الزمانى الذى يقع فيه التكوين، كما أن ظرف المكان: هو الوعاء المكانى الذى يحصل فيه الجسم. ولكن الوقت فى اصطلاح القوم أخص من ذلك.

قال أبو على الدقاق: الوقت ما أنت فيه، فإن كنت فى الدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن.

يريد أن الوقت ما كان الغالب على الإنسان من حاله.

وقد يريد: أن الوقت ما بين الزمانين الماضى والمستقل، وهو اصطلاح أكثر الطائفة. ولهذا يقولون: الصوفى والفقير ابن

وقته.

يريد أن همته لا تتعدى وظيفة عمارته بما هو أولى الأشياء به، وأنفعها له، فهو قائم بما هو مطالب به فى الحين والساعة الراهنة: فهو لا يهتم بماضى وقته وآتيه، بل يهتم بوقته الذى هو فيه، فإن الاشتغال بالوقت الماضى والمستقبل يضيع الوقت الحاضر، وكلما حضر وقت اشتغل عنه بالطرفين فتصير أوقاته كلها فوات.

قال الشافعى ﷺ: صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون: الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل.

قلت: يا لهما من كلمتين، ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته، ويكفى فى هذا ثناء الشافعى على طائفة، أى: السادة الصوفية، هذا قدر كلماتهم.

وقد قسم بعضهم الصوفية أربعة أقسام: أصحاب السوابق وأصحاب العواقب، وأصحاب الوقت، وأصحاب الحق.

قال: فأما أصحاب السوابق فقلوبهم أبدا فيما سبق لهم من الله لعلمهم أن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد.

ويقولون: من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل، ففكرهم فى هذا أبدا.

ومع ذلك فهم يجُدون في القيام بالأوامر واجتناب النواهي والتقرب إلى الله بأنواع القرب غير واثقين بها ولا ملتفتين إليها ويقول قائلهم:

مــــن أين أرضيك إلا أن توفقني

هيهات هيهات ما التوفيق من قبلي

إن لم يكن لي في المقدور سابقـــة

فليس ينفـــع ما قدمت من عملـــي

وأما أصحاب العواقب: فهم متفكرون فيما يختم به أمـــرهم، فإن الأمور بأواخرها والأعمال بخواتيمها والعاقبة مستورة كمـــا قيل:

لا يغــرنك صفا الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات

فكم من ربيع نورت أشجاره وتفتحت أزهاره وزهت ثمـــاره لم يلبث أن أصابته جائحة سماوية فصار كما قال الله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَـــنَّ أَهْلُهَـــا أَنَّهُـــمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّـــمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤).

فكم من مريد كبابه جواد عزمه

فخـــــر صريعا لليدين وللفـــم

وقيل لبعضهم- وقد شوهد منه خلاف ما كان يعهد عليـــه-:

ما الذى أصابك؟ فقال: حجاب وقع، وأنشد:-

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت

ولم تخف سوء ما يأتى به القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها

وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ليس العجب ممن هلك كيف هلك؟ إنما العجب ممن نجا كيف نجا؟

تعجبين من سقمى صحتى هى العجب!!

المناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة:-

خذ من الألف واحداً واطرح الكل من بعده

وأما **أصحاب الوقت**: فلم يشتغلوا بالسوابق ولا بالعواقب، بل اشتغلوا بمراعاة الوقت وما يلزمهم من أحكامه، وقالوا: العارف ابن وقته، لا ماضى له ولا مستقبل.

ورأى بعضهم الصديق ﷺ فى منامه فقال له: أوصنى، فقال له: كن ابن وقتك.

وأما **أصحاب الحق**: فهم مع صاحب الوقت والزمان ومالكهما ومدبرهما، مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات، لا يتفرغون لمراعاة وقت ولا زمان، كما قيل:

لست أدرى أطال ليلى أم

لا كيف يدرى بذاك من يتقلَّـــى

لــــو تفرغت لاستطالة ليلى

ولــــرعى النجوم كنت مِخلّى

إن للعاشقين عن قصر الليل وعن طوله من العشــق شــغلا، قال الجنيد: دخلت على السرى يوما فقلت له: كيــف أصــبحت؟ فأنشأ يقول:-

ما فى النهار ولا فى الليل لى فرج

فلا أبالى أطال الليل أم قصـــــرا

ثم قال: ليس عند ربكم ليل ولا نهار.

يشير إلى أنه غير متطلع إلى الأوقات، بل هو مع الذى يقدر الليل والنهار.

١٧- قال ابن القيم فى الجزء الثالث صفحة (٣٣٤):-

قال صاحب المنازل (باب المعرفة): قال الله تعــالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّــا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٨٣). المعرفة: إحاطة الشئ بعــين الشئ كما هو..

والفرق بين العلم والمعرفة عند أهل هذا الشأن[1]: أن المعرفة عندهم هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالما بالله وبالطريق الموصل إلى الله وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة.

فالعارف- عندهم- من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله فى معاملته، ثم أخلص له فى مقصوده ونياته، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من أوساخه ومخالفاته، ثم صبر على أحكام الله فى نعمه وبلياته، ثم دعا على بصيرة بدينه وآياته، ثم جرد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله، ولم يشبها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته. فهذا الذى يستحق اسم العارف على الحقيقة- إذا سمى به غيره على الدعوى والاستعارة.

وقد تكلموا على المعرفة بآثارها وشواهدها.

فقال بعضهم: من إمارات المعرفة بالله حصول الهيبة منه فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته.

وقال أيضا: المعرفة توجب السكون، فمن ازدادت معرفته

(١) أى: السادة الصوفية رضى الله عنهم.

ازدادت سكينته.

وقال لى بعض أصحابنا: ما علامة المعرفة التى يشيرون إليها؟ فقلت له: أنس القلب بالله، قال لى: علامتها أن يحس بقرب قلبه من الله فيجده قريبا منه.

وقال الشبلى: ليس لعارف علاقة، ولا لمحب شكوى، ولا لعبد دعوى، ولا لخائف قرار، ولا لأحد من الله فرار.

وهذا كلام جيد، فإن المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلها، وتعلقه بمعروفه، فلا يبقى فيه علاقة بغيره، ولا تمر به العلائق إلا وهى مجتازة، لا تمر مرور استيطان..

وقيل: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.

يعنى أن العالم علمه أوسع من حاله وصفته، والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره.

وقال أبو سليمان الدارانى: إن الله تعالى يفتح للعارف على فراشه ما لم يفتح له وهو قائم يصلى.

وقال غيره: العارف تنطق المعرفة على قلبه وحاله وهو ساكت.

وقال ذو النون: لكل شئ عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله.

وقال بعضهم: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين، وهذا كلام ظاهره منكر جدا يحتاج إلى شرح:-

فالعارف لا يرائى المخلوق طلبا للمنزلة فى قلبه، وإنما يكون رياؤه نصيحة وإرشاداً وتعليما ليقتدى به، فهو يدعو إلى الله بعمله كما يدعو إليه بقوله، فهو ينتفع بعلمه وينفع به غيره.

وإخلاص المريد مقصور على نفسه.

فالعارف جمع بين الإخلاص والدعوة إلى الله، فإخلاصه فى قلبه، وهو يظهر عمله وحاله ليقتدى به، فالعارف ينفع بسكوته والعالم إنما ينفع بكلامه- ولو سكتوا أثنت عليه الحقائق-.

وقال ذو النون: الزهاد ملوك الآخرة وهم فقراء العارفين.

وسئل الجنيد عن العارف؟ فقال: لون الماء لون إنائه، وهذه كلمة رمز بها إلى حقيقة العبودية:

وهو أن يتلون بتلون أقسام العبودية، فبينا تراه مصليا إذ رأيته ذاكرا أو قارئا أو معلما أو متعلما أو مجاهدا أو حاجا أو مساعدا للضعيف أو مغيثا للملهوف، فيضرب في كل غنيمة من الغنائم بسهم، فهو مع المتسببين متسبب، ومع المتعلمين متعلم، ومع الغزاة غاز، ومع المصلين مصل، ومع المتصدقين متصدق، فهو ينتقل فى منازل العبودية من عبودية إلى عبودية، وهو مقيم على معبود واحد لا ينتقل إلى غيره..

وقال أبو سعيد: المعرفة تأتى من عين الوجود وبذل المجهود.

وهذا كلام حسن، يشير إلى أن المعرفة ثمرة بذل المجهود فى الأعمال، وتحقق الوجد فى الأحوال، فهى ثمرة عمل الجوارح، وحال القلب لا ينال بمجرد العلم والبحث، فمن ليس له عمل ولا حال فلا معرفة له..

وقال بعض السلف: نوم العارف يقظة، وأنفاسه تسبيح، ونوم العارف أفضل من صلاة الغافل.

وإنما كان نوم العارف يقظة لأن قلبه حى وعيناه تنامان وروحه ساجدة تحت العرش بين يدى ربها وفاطرها، جسده فى الفرش وقلبه حول العرش.

وإنما كان نومه أفضل من صلاة الغافل لأن بدن الغافل واقف فى الصلاة وقلبه يسبح فى حشوش الدنيا والأمانى، ولذلك كانت يقظته نوما لأن قلبه موات.

وقيل: مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة فى الدنيا إلى الرغبة فى الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

الكشف عند الصوفية:

١٨- قال ابن القيم فى الجزء الثالث صفحة (١١٠):-

قال: (الدرجة الثانية ملاحظة نور الكشف وهى تسبل لباس التولى، وتذيق طعم التجلى، وتعصم من عوار التسلى).

هذه الدرجة أتم مما قبلها، فإن تلك الدرجة: ملاحظة ما سبق بنور العلم، وهذه ملاحظة كشف بحال قد استولى على قلبه حتى شغله عن الخلق، فأسبل عليه لباس توليه لله وحده وتوليه عما سواه.

ونور الكشف عندهم: هو مبدأ الشهود، وهو نور تجلى معانى الأسماء الحسنى على القلب، فتضىء به ظلمة القلب ويرتفع به حجاب الكشف، ولا تلتفت إلى غير هذا، فتزل قدم بعد ثبوتها.

فإنك تجد فى كلام بعضهم (تجلى الذات يقتضى كذا وكذا، وتجلى الصفات يقتضى كذا وكذا، وتجلى الأفعال يقتضى كذا وكذا)، والقوم عنايتهم بالألفاظ فيتوهم المتوهم: أنهم يريدون تجلى حقيقة الذات والصفات والأفعال للعيان، فيقع من يقع منهم فى الشطحات والطامات، والصادقون العارفون برآء من ذلك.

وإنما يشيرون إلى كمال المعرفة، وارتفاع حجب الغفلة والشك والإعراض، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو

شهود السوى بالكلية، فلا يشهد القلب سوى المعرفة.

وينظرون هذا بطلوع الشمس فإنها إذا طلعت انطمس نور الكواكب، وإنما غطى عليها نور الشمس فلم يظهر لها وجود، وهى فى الواقع موجودة فى أماكنها.

وهكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب قوى سلطانها وزالت الموانع والحجب عن القلب، ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله.

ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف برزت وتجلت للعبد كما تجلى سبحانه للطور، وكما يتجلى يوم القيامة للناس إلا غالط فاقد للعلم، وكثيرا ما يقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلى نور الذات والصفات.

فإن العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية والذكر المتواطئ عليه القلب واللسان: يوجب نورا على قدر قوته وضعفه، وربما قوى ذلك النور حتى يشاهد بالعيان فيغلط فيه ضعيف التمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية فيظنه نور الذات وهيهات ثم هيهات.

نور الذات لا يقوم له شئ، ولو كشف سبحانه وتعالى الحجاب عنه لتدكدك العالم كله كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليسير من التجلى..

فالإسلام له نور، والإيمان له نور أقوى منه، والإحسان له نور أقوى منهما، فإذا اجتمع الإسلام والإيمان والإحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله تعالى: امتلأت القلوب والجوارح بذلك النور، لا بالنور الذى هو صفة الرب تعالى، فإن صفاته لا تحل فى شئ من مخلوقاته كما أن مخلوقاته لا تحل فيه، فالخالق سبحانه بائن عن المخلوق بذاته وصفاته فلا اتحاد ولا حلول ولا ممازجة- تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا.

مناجاة الحق عند الصوفية:

١٩- قال ابن القيم فى الجزء الثالث صفحة (٩٩):-

(قوله: (وذوق المسامرة: طعم العيان) مرادهم بالمسامرة: مناجاة القلب ربه وإن سكت اللسان، فلذة استيلاء ذكره تعالى ومحبته على قلب العبد وحضوره بين يديه وأنسه وقربه منه حتى يصير كأنه يخاطبه ويسامره، ويعتذر إليه تارة، ويتملقه تارة، ويثنى عليه تارة، حتى يبقى القلب ناطقا بقوله: (أنت الله الذى لا إله إلا أنت) من غير تكلف له بذلك.

بل يبقى هذا حالا ومقاما ,لا ينكر وصول القوم[١] إلى هذا، فقد قال النبى ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه) فإذا بلغ فى مقام الإحسان بحيث يكون كأنه يرى الله سبحانه، فهكذا

---

(١) أى: السادة الصوفية رضى الله عنهم.

مخاطبته ومناجاته له.

٢٠- قال ابن القيم فىالجزء الثانى صفحة (٤٥٩):-

(ومن منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة (الإحسان)، وهى لب الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها. وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان. أهـ.

هذه عشرون قطعة من كلام ابن القيم فى كتابه (مدارج السالكين) شرح (منازل السائرين) اخترناها من مواضع مختلفة، والكتاب كله مملوء بأمور التصوف المختلفة، والآن سنذكر نماذج من كلامه المتعلق بالتصوف والسادة الصوفية من بعض كتبه الأخرى أيضا وباختصار جدا إن شاء الله:-

المعرفة والمحبة عند الصوفية:

قال فى كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) صفحة (٤٠٦) ما نصه:-

(ومن عرف الله لم يكن شئ أحب إليه منه، ولم تبق له رغبة فيما سواه إلا فيما يقربه إليه ويعينه على سفره إليه.

ومن علامات المعرفة: الهيبة، فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى

اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨). أى العلماء به.

وقال النبى ﷺ: (أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية).

ومن عرف الله صفا له العيش وطابت له الحياة وهابه كل شئ، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله والتعظيم له والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه والإنابة إليه والرضا والتسليم لأمره.

وقيل للجنيد رحمه الله تعالى: إن هاهنا أقواما يقولون: (إنهم يصلون إلى البر بترك الحركات) فقال: هؤلاء تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم، والذى يزنى ويسرق أحسن حالا من الذى يقول هذا، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإلى الله رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر شيئا.

وقال: لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر، وكالمطر يسقى ما يحب وما لا يحب.

وقال يحي بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولا يقضى وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه، وشوقه إلى ربه.

وقال بعضهم: لا يكون العارف عارفا حتى لو أعطى ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين.

وقيل: العارف أنس بالله فاستوحش من غيره، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه، وذل لله فأعزه في خلقه.

وقال أبو سليمان الداراني: يفتح للعارف على فراشه ما لا يفتح له وهو قائم يصلي.

وقال ذو النون: لكل شئ عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله، وبالجملة فحياة القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبدا، ومتى واطأ اللسان القلب في ذكره، واطأ القلب مراد حبيبه منه، واستقل له الكثير مع قوله وعمله، واستكثرله القليل من بره ولطفه، وعانق الطاعة وفارق المخالفة، وخرج عن كله لمحبوبه فلم يبق منه شئ، وامتلأ قلبه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه وعز عليه الصبر عليه، وعُدم القرار دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه، ولم يجد الأنس إلا بذكره وحفظ حدوده وآثره على غيره فهو المحب حقا.

وقال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي يقول: المحبة ميلك إلى الشئ بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

وقيل: المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد الحبيب من محبه.

وقيل: بل هي بذل المجهود في رضا الحبيب، ولا تصح إلا

بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب.

وفى بعض الآثار الإلهية: عبدى أنا وحقك لك محب، فبحقى عليك كن لى محبا.

وقال عبد الله بن المبارك: من أعطى شيئا من المحبة ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع.

وقال يحى بن معاذ: مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب.

وقال أبو بكر الكتانى: جرت مسألة فى المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ(١) فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقى، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين.

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: (يا داود إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى وحب غيرى).

---

(١) أى: شيوخ الصوفية رضى الله عنهم.

فأجمع العارفون كلهم: أن المحبة لا تضح إلا بالموافقة، حتى قال بعضهم: حقيقة الحب موافقة المحبوب في مراضيه ومساخطه.

واتفق القوم[1] أن المحبة لا تصح إلا بتوحيد المحبوب.

ويحكى أن رجلا ادعى الاستهلاك في محبة شخص، فقال له: كيف وهذا أخي أحسن مني وجها وأتم جمالا؟ فالتفت الرجل إليه فدفعه الشاب وقال: من يدعي هوانا ينظر إلى سوانا؟.

وذكرت المحبة عند ذي النون فقال: كفوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها، ثم أنشأ يقول:-

الخوف أولى بالمسيء إذا تأله والحزن
والحب يجمل بالتقي وبالنقي من الدرن

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، إن النبي ﷺ قال: (المرء مع من أحب) فهم مع الله في الدنيا والآخرة.

وقال يحي بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبته ثم لم يحفظ حدوده.

فالمحبة شجرة في القلب عروقها الذل للمحبوب، وساقها

(١) أي: السادة الصوفية رضي الله عنهم.

معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التى تسقيها ذكره، فمتى خلا الحب عن شئ من ذلك كان ناقصا.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فأخبر أنهم أشد حبا لله، ووصف نفسه بأنه الودود وهو الحبيب، قاله البخارى، والود خالص الحب فهو يود عباده المؤمنين ويودونه..

ولو لم يكن فى محبة الله إلا أنها تنجى محبَّه من عذابه لكان ينبغى للعبد أن لا يتعوض عنها بشئ أبدا.

وسئل بعض العلماء: أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذّب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ (المائدة: ١٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن ﷺ أن النبى ﷺ قال: (والله لا يعذب الله حبيبه، ولكن قد يبتليه فى الدنيا).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا أبو غالب، قال: بلغنا أن هذا الكلام فى وصية عيسى بن مريم ﷺ (يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصى، وتقربوا إليه بالمقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم، قالوا: يا نبى

الله! فمن نجالس. قالوا: جالسوا من يزيد فى أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهدكم فى دنياكم علمه)..

وقال عبد الواحد بن زيد عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم فى الآخرة لذابت أنفسهم فِي الدنيا.

وقال هشام بن حسان عنه: أنه تبارك وتعالى يتجلى لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة.

أعجب الصبر صبر المحبين. قال الشاعر:-

والصبر يحمد فى المواطن كلها

إلا عليك فإنه لا يحمد

وقف رجل على الشبلى فقال: أى الصبر أشد على الصابرين؟ قال:الصبر فى الله، فقال السائل: لا، فقال: الصبر لله، قال: لا، قال: فالصبر مع الله، قال: لا، قال: فما هو؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تزهق.. قال الشاعر:

والصبر عنك فمذموم عواقبه

والصبر فى سائر الأشياء محمود

الخوف يبعدك عن معصيته، والرجاء يخرجك إلى طاعته، والحب يسوقك إليه سوقا، لما علم الله سبحانه أن قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلقائه ضرب لهم أجلا للقاء تسكينا

لقلوبهم، فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾ (العنكبوت: ٥).

يا من شكى شوقه من طول فرقته

اصبر لعلك تلقى من تحب غدا

وسر إليه بنار الشوق مجتهدا

عساك تلقى على نار الغرام هدى

...أقر شئ لعيون المحب خلوته بسره مع محبوبه، حدثني من رأى شيخنا[١] في عنوان أمره خرج إلى البرية بكرة فلما أصحر تنفس الصعداء ثم تمثل بقول الشاعر:

وأخرج من بين البيوت لعلني

أحدث عنك القلب بالسر خاليا

الشوق يحمل المحب على العجلة في رضاء المحبوب والمبادرة إليهما على الفور ولو كان فيها تلفه ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى* قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه:٨٣-٨٤).

قال بعضهم أراد شوقا إليك فستره بلفظ الرضا. ..

لو قيل للمحب على الدوام: ما تتمنى؟ لقال: لقاء المحبوب.

---

(١) أي: ابن تيمية.

ولما نزلنا منزلا طلّه الندى

أنيقا وبستانا من النور حاليا

أجد لنا طيب المكان وحسنه

مُنــــى فتمنينا فكنت الأمانيا

وقال الجنيد: سمعت السرى يقول: الشوق أجلّ مقام العـارف إذا تحقق فيه، وإذا تحقق بالشوق لها عن كل ما يشـغله عمـن يشتاق إليه.

وقيل: أوحى الله تعالى إلــى داود عليه السلام: قـل لشـبان بنــى إسرائيل لم تشغلون نفوسكم بغيرى وأنا مشتاق إلـيكم مـا هـذا الجفاء؟ ولو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهـم ومحبتى لترك معاصيهم لماتوا شوقا إلىَّ، وانقطعـت أوصـالهم من محبتى، هذه إرادتى للمدبرين عنى فكيف إرادتــى للمقبلــين علىّ؟.

وسئل الجنيد: من أى شئ بكاء المحب إذا لقــى المحبــوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سرورا به ووجدا من شدة الشوق إليه.

قال: ولقد بلغنى أن أخوين تعانقا فقال أحــدهما: وا شــوقاه، وقال الآخر: وا وجداه.

وكانت عجوز لها غائب فقدم من السفر فأظهر أهلها الفــرح والسرور به، فجعلت تبكى فقيل لها: ما هــذا البكــاء؟ فقالــت:

ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم إلى الله.

وقال بعض المحبين: قلوب المشتاقين منورة بنور الله، فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أني إليهم أشوق.

وقال في كتاب (الفوائد[1]) صفحة (٥٥):

فائدة جليلة:

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين: خطوة عن نفسه وخطوة عن الخلق، فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس، ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله، فلا يلتفت إلا إلى من دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه..

ما في هذه الدار موضع خلوة فاتخذه في نفسك لابد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها على حذر، لا تضرك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها: نور الحق أضوأ من الشمس فيحق لخفافيش البصائر أن تعشو عنه.

الطريق إلى الله خال من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمور بأهل اليقين والصبر، وهم على الطريق

---

(١) طبعة دار الكتب العلمية- بيروت.

كالأعلام: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

وقال فى (الفوائد) أيضا صفحة (٥٩):

أنواع الجهاد عند الصوفية:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩). علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا.

وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا.

فمن جاهد هذه الأربعة فى الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: (والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص) ولا يتمكن من جهاد عدوه فى الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن نُصر عليها نُصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه.

وقال فى (الفوائد) أيضا صفحة (١١٧):

علامة صحة الإرادة أن يكون هم المريد رضا ربه

واستعداده للقائه وحزنه على وقت مر فى غير مرضاته، وأسفه على قربه والأنس به، وجماع ذلك أن يصبح ويمسى وليس له هم غيره.

وقال أيضا فى (الفوائد) صفحة (١٧٠) :-

معرفة الله سبحانه نوعان: معرفة إقرار، وهى التى اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والمعاصى.

والثانى: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته والإنابة إليه، والأنس به والفرار من الخلق إليه، وهذه هى المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم[١]، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذى عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم.

وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها، وقد قال: أعرف الخلق به (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن..

فصل

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع

---

(١) أى: السادة الصوفية رضى الله عنهم.

الفائدة القليلة، فإن صاحبه إما أن يجتهد فى نافلة مع إضاعته الفرض، أو فى عمل الجوارح لم يواطئه عمل القلب، أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء، أو همة إلى عمل لم ترق صاحبها إلى ملاحظة المقصود، أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له، حال العمل وبعده، أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه، أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده فى مقام الاعتذار منه، أو عمل ما لم يوفه حقه من النصح والإحسان وهو يظن أنه وفاه.

فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب، والله الموفق.

فصل

إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع فينخدع أولا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس.

فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق فى طلبه ابتلى بوطء عقبه وتقبيل يده والتوسعة له فى المجلس والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته ونحو ذلك.

فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلى بالكرامات والكشوفات.

فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلى بالتجريد والتخلى ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا.

فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظرا إلى مراد الله منه وما يحبه منه يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يجتاز لنفسه غير ما يجتازه له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره.

فهذا هو العبد الذى قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيئ البتة، وبالله التوفيق.

وقال فى (الفوائد) أيضا صفحة (١٩٢):

من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلته، ثم لايزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطئا على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلته بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع فى الذكر بقلبه، فإذا قوى استتبع لسانه فتواطئا جميعا.

فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، والثانى ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه بل يسكن أولا حتى يحس

بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبى إلى الذكر اللسانى، ثم يستغرق فى ذلك حتى يجد كل شئ منه ذاكرا.

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

وقال فى (الفوائد) أيضاً صفحة (١٩٦):

فائدة

الإنابة: هى عكوف القلب على الله عز وجل، كاعتكاف البدن فى المسجد لا يفارقه.

وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة.

كما قال إمام الحنفاء (الخليل إبراهيم عليه السلام) لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٢)، فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل جمع تمثال وهى الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله والركون إليه عكوف منه على التماثيل التى قامت

بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الاصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم، فإذا كان فى القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفا عليها فهو نظير عكوف الأصنام عليها.

ولهذا سماه النبى ﷺ عبدا لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال: (تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش).

الناس فى هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده، ونازل على من يسر بالنزول عليه، وطالب الله والدار الآخرة إنما هو ظاعن إلى الله فى حال سفره، ونازل عليه عند القدوم عليه.

فهذه همته فى سفره وفى انقضائه ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِيعِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠). وقالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ﴾ (التحريم: ١١). فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون فى الجنة، فإن الجار قبل الدار.

من كلام الشيخ على:

قيل لى فى نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم: لا تبد فاقة إلى غيرى فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حدك فى عبوديتك،

ابتليتك بالفقر لتصير ذهبا خالصا فلا تزيفن بعد السبك، حكمت لك بالفقر ولنفسي بالغنى، فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيرى حسمت عنك مواد معونتى طرداً لك عن بابى، لا تركن إلى شئ دوننا فإنه وبال عليك وقاتل لك.

إن ركنت إلى العمل رددناه عليك، وإن ركنت إلى المعرفة نكرناها عليك، وإن ركنت إلى الوجد استدرجناك فيه، وإن ركنت إلى العلم أوقفناك معه، وإن ركنت إلى المخلوقين وكلناك إليهم، إرضنا لك ربا نرضاك لنا عبدا.

أهمية الشيخ المربى:

وقال ابن القيم فى (الوابل الصيب من الكلم الطيب[1]) صفحة (٦٨):

قال تعالى: ﴿وَلاَتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف: ٢٨). فإذا أراد العبد أن يقتدى برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه هو الهوى أو الوحى؟ فإذا كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطا. ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أى: أمره الذى يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه ضائع، قد فرط فيه.

---

(١) طبعة دار البيان- دمشق.

وفسر بالإسراف، أى: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق. وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود: أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات.

فينبغى للرجل أن ينظر إلى شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم فى أمره فليتمسك بغرزه.

ولا فرق بين الحى والميت إلا بالذكر، فمثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحي والميت..

..وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

فهذه أربعة مواضع ذكر تعالى فيها: أنه يجزى المحسن بإحسانه جزائين: جزاء فى الدنيا وجزاء فى الآخرة، فالإحسان له جزاء معجل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد.

ولو لم يكن إلا ما يجازى به المحسن من انشراح صدره فى انفساح قلبه وسروره ولذاته بمعاملة ربه عز وجل وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته، وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى

أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه.

وما يجازى به المسئ من ضيق الصدر، وقسوة القلب، وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه.

وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حسن وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة.

والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضى به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته: ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب

ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفتــه وذكره، أو نحو هذا.

وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا.

وقال آخر: إنه لتمر بى أوقات أقول: إن كان أهل الجنة فــى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب.

فمحبة الله تعالى ومعرفتــه ودوام ذكــره والســكون إليــه والطمأنينة إليه وإفراده بالحــب والخــوف والرجــاء والتوكــل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولى على همــوم العبــد وعزماته وإراداته: هو جنة الدنيا والنعيم الذى لا يشــبهه نعــيم وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين.

وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بــالله وجل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقِ بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

الفصل الثالث

ابن كثير الدمشقى الشافعى

١- ذكر فى (البداية والنهاية)[1] الجزء الحادى عشر صفحة (١٨٠) فيمن توفى من الأعيان فى سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة فقال:

(محمد بن أحمد بن القاسم أبو على الروذبارى).

وقيل: اسمه أحمد بن محمد، ويقال: الحسين بن الهمام، والصحيح الأول، أصله من بغداد وسكن مصر، وكان من أبناء الرؤساء والوزراء والكتبة.

وصحب الجنيد[2] وسمع الحديث وحفظ منه كثيرا، وتفقه بإبراهيم الجربى، وأخذ النحو عن ثعلب، وكان كثير الصدقة والبر للفقراء، وكان إذا أعطى الفقير شيئا جعله فى كفه تحت يد الفقير ثم يتناوله الفقير، يريد أن لا تكون يد الفقير تحت يده.

قال أبو نعيم: سئل أبو على الروذبارى عمن يسمع الملاهى ويقول: إنه وصل إلى منزلة لا يؤثر فيه اختلاف الأحوال؟ فقال: نعم وصل ولكن إلى سقر.

---

(١) طبعة مكتبة الرياض الحديثة- الرياض- المملكة العربية السعودية.

(٢) هو شيخ الصوفية الأجل المعروف عند القوم وغيرهم بسيد الطائفة.

وقال: الإشارة: الإبانة لما تضمنه الوجد من المشار إليه لا غيره، وفى الحقيقة أن الإشارة تصححها العلل، والعلل بعيدة من غير الحقائق..

وقال: إن المشتاقين إلى الله يجدون حلاوة الشوق عند ورود المكاشف لهم عن روح الوصال إلى قربه أحلى من الشهد..

وقال: فى اكتساب الدنيا مذلة النفوس، وفى اكتساب الآخرة عزها، فيا عجبا لمن يختار المذلة فى طلب ما يفنى على العز فى طلب ما يبقى.

ومعنى شعره:

لو مضى الكل منى لم يكن عجبا، وإنما العجبى في البعض كيف بقى، أدرك بقية روح منك قد تلفت قبل الفراق فهذا آخر الرفق.

و(محمد بن إسماعيل) المعروف بخير النساج أبو الحسين الصوفى، من كبار المشايخ ذوى الأحوال الصالحة والكرامات المشهورة، أدرك سريا السقطى وغيره من مشايخ القوم، وعاش مائة وعشرين سنة.

ولما حضرته الوفاة نظر إلى زواية البيت فقال: قف رحمك الله، فإنك عبد مأمور وأنا عبد مأمور، وما أمرت به لا يفوت وما أمرت به يفوت، ثم قام وتوضأ وصلى وتمدد ومات- رحمه

الله-.

وقد رآه بعضهم فى المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: استرحنا من دنياكم الوخيمة.

٢- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الحادى عشر صفحة (٣٣٤):

فى حوادث سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، بعد ما ذكر حكايات عجيبة عن قارئين قال:

ولما رجع هذان القارئان رتبهما ولى الأمر مع أبى بكر بن البهلول، وكان مقرئا مجيدا أيضا، ليصلوا بالناس صلاة التراويح فى رمضان، فكثر الجمع وراءهم لحسن تلاوتهم، وكان يطيلون الصلاة جدا ويتناوبون فى الإمامة، يقرأون فى كل ركعة بقدر ثلاثين آية، والناس لا ينصرفون من التراويح إلا فى الثلث الأول من الليل أو قريب النصف منه،•وقد قرأ ابن البهلول يوما فى جامع المنصور قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد: ١٦). فنهض إليه رجل صوفى وهو يتمايل فقال: كيف قلت؟ فأعاد الآية، فقال الصوفى: بلى والله، وسقط ميتا رحمه الله.

قال ابن الجوزى: وكذلك وقع لأبى الحسن بن الخشاب شيخ ابن الرفاء، وكان تلميذا لأبى بن الأدمى المتقدم ذكره، وكان

جيد القراءة حسن الصوت أيضا، قرأ ابن الخشاب هذا فى جامع الرصافة فى لاحياء هذه الآية ﴿ألم يأن للذين آمنـــوا﴾ فتواجــد رجل صوفى وقال: بلى والله قد آن، وجلس وبكى بكاء طــويلا ثم سكت سكتة، فإذا هو ميت رحمه الله.

٣- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الحادى عشر صــفحة (٨٤):

فى سنة سبع وثمانين ومائتين قال: وممن توفى فيها أبو بكر ابن أبى عاصم صاحب السنة والمصنفات وهو (أحمد بن عمرو ابن أبى عاصم الضحاك) ابن النبيل، له مصنفات فــى الحــديث كثيرة منها: كتاب السنة فى أحاديــث الصــفات علــى طريــق السلف، وكان حافظا قد ولى قضاء أصبهان بعــد صــالح بــن أحمد، وقد طاف البلاد قبل ذلك فى طلب الحديث، وصحب أبــا تراب النخشبى وغيره من مشايخ الصوفية، وقد اتفق له كرامــة هائلة: كان هو واثنان من كبار الصالحين فى سفر فنزلوا علــى رمل أبيض، فجعل أبو بكر يقبله ويقول: اللهم ارزقنــا خبيصــا يكون غذاء على لون هذا الرمل.

فلم يكن بأسرع من أن أقبل أعرابى وبيده قصعة فيها خبيص بلون ذلك الرمل وفى بياضه، فأكلوا منه.

وكان يقول: لا أحب أن يحضر مجلسى مبتدع ولا مــدع ولا

طعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذئ ولا منحرف عن الشافعى وأصحاب الحديث.

توفى فى هذه السنة بأصبهان، وقد رآه بعضهم بعد وفاته وهو يصلى فلما انصرف قال: ما فعل بك؟ فقال: يؤنسنى ربى عز وجل.

٤- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الحادى عشر صفحة (٩٧):

فى سنة تسعين ومائتين قال: (وفيها توفى من الأعيان.. و(محمد بن عبد الله أبو بكر الدقاق) أحد أئمة الصوفية وعبادهم روى عن الجنيد أنه قال: رأيت إبليس فى المنام وكأنه عريان فقلت: ألا تستحى من الناس؟ فقال:- وهو لا يظنهم ناسا- لو كان ناسا ما كنت ألعب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة، إنما الناس جماعة غير هؤلاء، فقلت: أين هم؟ فقال: فى مسجد الشونيزى قد أضنوا قلبى وأتعبوا جسدى، كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل فأكاد أحترق، قال: فلما انتبهت لبست ثيابى ورحت إلى المسجد الذى ذكر فإذا فيه ثلاثة جلوس ورؤوسهم فى مرقعاتهم، فرفع أحدهم رأسه إلى وقال: يا أبا القاسم لا تغتر بحديث الخبيث، وأنت كلما قيل لك شئ تقبل؟ فإذا أبو بكر الدقاق، وأبو الحسين النورى، وأبو حمزة محمد بن

على بن علوية ابن عبد الله الجرجانى الفقيـه الشـافعى تلميـذ المزنى، ذكره ابن الأثير.

٥- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الحادى عشر صـفحة (١١٣):

فى سنة ثمان وتسعين ومائتين ذكر: أنه تـوفى فيهـا مـن الأعيان... و(الجنيد بن محمد بن الجنيد) أبو القاسم الخـزاز، ويقال له القواريرى أصله من نهاوند، ولد ببغـداد، ونشـأ بهـا وسمع الحديث من الحسين بن عرفة، وتفقه بأبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبى، وكان يفتى بحضرته وعمره عشرون سـنة، وقـد ذكرناه فى طبقات الشافعية، واشتهر بصحبة الحارث المحاسبى، وخاله سرى السقطى، ولازم التعبد ففتح الله عليه بسـبب ذلـك علوما كثيرة، وتكلم على طريقة الصوفية.

وكان ورده فى كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة، ومكث أربعين سنة لا يأوى إلى فراشه، ففتح عليه مـن العلـم النافع والعمل الصالح بأمور لم تحصل لغيره فى زمانه.

وكان يعرف سائر فنون العلم، وإذا أخذ فيها لم يكن له فيهـا وقفة ولا كبوة، حتى كان يقول فى المسألة الواحدة وجوها كثيرة لم تخطر للعلماء ببال، وكذلك فى التصوف وغيره.

ولما حضرته الوفاة جعل يصلى ويتلو القرآن فقيل لـه: لـو

رفقت بنفسك فى مثل هذا الحال؟ فقال: لا أحد أحوج إلى ذلك منى الآن، وهذا أوان طى صحيفتى.

قال ابن خلكان: أخذ الفقه عن أبى ثور، ويقال: كان يتفقه على مذهب سفيان الثورى، وكان ابن سريج يصحبه ويلازمه وربما استفاد منه أشياء فى الفقه لم تخطر له ببال.

ويقال: إنه سأله مرة عن مسألة فأجابه فيها بجوابات كثيرة فقال: يا أبا القاسم لم أكن أعرف سوى ثلاثة أجوبة مما ذكرت فأعدها على، فأعادها بجوابات أخرى غير ذلك، فقال له: لم أسمع بمثل هذا، فأمله علىَّ حتى أكتبه.

فقال الجنيد: لإن كنت أجريه فأنا أمليه، أى: أن الله هو الذى يجرى ذلك على قلبى وينطق به لسانى، وليس هذا مستفاد من كتب ولا من تعلم وإنما هذا من فضل الله عز وجل يلهمه ويجريه على لسانى، فقال: فمن أين استفدت هذا العلم؟ قال: من جلوسى بين يدى الله أربعين سنة، والصحيح أنه كان على مذهب سفيان الثورى وطريقه. والله أعلم أ. هـ.

وسئل الجنيد عن العارف؟ فقال: من نطق عن سرك وأنت ساكت.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى مذهبنا وطريقتنا.

ورأى بعضهم معه مسبحة: فقال له: أنت مع شرفك تتخذ مسبحة؟ فقال: طريق وصلت به إلى الله لا أفارقه[1].

وقال له خاله السرى: تكلم على الناس، فلم ير نفسه موضعا، فرأى فى المنام رسول الله ﷺ فقال له: تكلم على الناس، فغدا على خاله فقال له: لم تسمع منى حتى قال لك رسول الله، فتكلم على الناس.

فجاءه يوما شاب نصرانى فى صورة مسلم، فقال له: يا أبا القاسم ما معنى قول النبى ﷺ: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه إليه وقال: أسلم فقد آن لك أن تسلم، قال: فأسلم الغلام.

وقال الجنيد: ما انتفعت بشئ انتفاعى بأبيات سمعتها من جارية تغنى بها فى غرفة وهى تقول:-

إذا قلت أهدى الهجر لى حلل البلى
تقولين لو لا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الجوى
تقولين إن الجوى شرف القلب
وإن قلت ما أذنبت قالت مجيبة

---

(١) المسبحة يعتبرها الوهابية أدعياء السلفية بدعة، وينكرونها أشد الإنكار!!.

حياتك ذنب لا يقاس بــــــه ذنب

قال: فصعقت وصحت، فخرج صاحب الدار فقال: يا سـيدى مالك؟ قلت: مما سمعت، قال: هى هبة منى إليـك، فقلـت: قـد قبلتها وهى حرة لوجه الله، ثم زوجتها لرجـل، فأولـدها ولـدا صالحا حج على قدميه ثلاثين حجة.

٦- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الحادى عشر صـفحة (١٩٢):

سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة قال: وفيها توفي من الأعيـان: (أبو محمد جعفر المرتعش) أحد مشايخ الصـوفية. كـذا ذكـره الخطيب، وقال أبو عبد الرحمن السلمى: اسمه عبد الله بن محمد أبو محمد النيسابورى، كان مـن ذوى الأمـوال فتخلـى منهـا وصحب الجنيد وأبا حفص وأبا عثمان.

وأقام ببغداد حتى صار شيخ الصوفية، فكان يقال: عجائـب بغداد: إشارات الشبلى، ونكـت المـرتعش، وحكايـات جعفـر الخواص.

سمعت أبا جعفر الصائغ يقول: قال المرتعش: مـن ظـن أن أفعاله تنجيه من النار أو تبلغه الرضوان فقد جعل لنفسه وفعلـه خطراء، ومن اعتمد على فضـل الله بلغـه الله أقصـى منـازل الرضوان.

وقيل للمرتعش: إن فلانا يمشى على الماء، فقال: إن مخالفة الهوى أعظم من المشى على الماء والطيران فى الهواء.

ولما حضرته الوفاة بمسجد الشونيزية حسبوا ما عليه من الدين فإذا عليه سبعة عشر درهما فقال: بيعوا خريقاتى هذه واقضوا بها دينى، وأرجو من الله تعالى أن يرزقنى كفنا، وقد سألت الله ثلاثا: أن يميتنى فقيرا، وأن يجعل وفاتى فى هذا المسجد فإنى صحبت فيه أقواما، وأن يجعل عندى من آنس به وأحبه، ثم أغمض عينيه فمات.

٧- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الحادى عشر صفحة (١٩٣):

فى ذكر سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة قال: وفيها توفى من الأعيان أيضا (على بن محمد أبو الحسن المزين الصغير) أحد مشايخ الصوفية، أصله من بغداد وصحب الجنيد وسهلا التسترى، وجاور بمكة حتى توفى فى هذه السنة، وكان يحكى عن نفسه قال: وردت بئرا فى أرض تبوك فلما دنوت منها زلقت فسقطت فى البئر وليس أحد يرانى، فلما كنت فى أسفله إذا فيه مصطبة فتعلقت بها وقلت: إن مت لم أفسد على الناس الماء، وسكنت نفسى وطابت للموت، فبينا أنا كذلك إذا أفعى قد تدلت على فلفت على ذنبها (ذيلها) ثم رفعتنى حتى أخرجتنى

إلى وجه الأرض وانسابت، فلم أدر أين ذهبت ولا من أين جاءت.

وفى مشايخ الصوفية: آخر يقال به أبو جعفر المزين الكبير جاور بمكة ومات بها أيضا وكان من العباد.

روى الخطيب عن على بن أبى على إبراهيم بن محمد الطبرى عن جعفر الخلدى قال: ودعت فى بعض حجّاتى المزين الكبير فقلت له: زودنى، فقال لى: إذا فقدت شيئا فقل: (يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد إجمع بينى وبين كذا) فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشئ، قال: وجئت إلى الكتانى فودعته وسألته أن يزودنى فأعطانى خاتما على فصه نقش، فقال: إذا اغتممت فانظر إلى فص هذا الخاتم يزول غمك، قال: فكنت لا أدعو بذلك الدعا إلا استجيب لى ولا أنظر إلى ذلك الفص إلا وزال غمى، فبينا أنا ذات يوم فى سمرية إذ هبت ريح شديدة، فأخرجت الخاتم لأنظر إليه فلم أدر كيف ذهب، فجعلت أدعو بذلك الدعاء يومى أجمع أن يجمع على الخاتم، فلما رجعت إلى المنزل فتشت المتاع الذى فى المنزل فإذا الخاتم فى بعض ثيابى التى كانت بالمنزل.

٨- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الثالث عشر صفحة (٩٣):

فى ذكر سنة سبع عشرة وستمائة قال: وفيها توفى من الأعيان..

فذكر منهم (الشيخ عبد الله اليونينى) الملقب (أسد الشام) رحمه الله ورضى عنه، من قرية ببعلبك يقال لها (يونين) وكانت له زاوية يقصد فيها للزيارة، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، له همة عالية فى الزهد والورع، بحيث إنه كان لا يقتنى شيئا ولا يملك مالا ولا ثيابا بل يلبس عارية، ولا يتجاوز قميصا فى الصيف وفروة فى الشتاء، وعلى رأسه قبعا من جلود المعز شعره إلى ظاهر.

وكان لا ينقطع عن غزاة من الغزوات، ويرمى عن قوس زنته ثمانون رطلا، وكان يجاور فى بعض الأحيان بجبل لبنان، ويأتى فى الشتاء إلى عيون العاسريا فى سفح الجبل المطل على قرية دومة شرقى دمشق لأجل سخونة الماء، فيقصده الناس للزيارة هناك، ويجئ تارة إلى دمشق فينزل بسفح قاسيون عند القادسية.

وكانت له أحوال ومكاشفات صالحة، وكان يقال له (أسد الشام).

حكى الشيخ أبو المظفر سبط ابن الجوزى عن القاضى جمال

الدين يعقوب الحاكم بكرك البقاع أنه شاهد مرة الشيخ عبـد الله وهو يتوضأ من ثور عند الجسر الأبيض، إذ مر نصراني ومعه حمل بغل خمرا، فعثرت الدابة عند الجسر فسقط الحمل، فـرأى الشيخ وقد فرغ من وضوئه ولا يعرفه، واستعان به على رفـع الحمل، فاستدعاني الشيخ فقال: تعال يا فقيـه، فتسـاعدنا علـى تحميل ذلك الحمل على الدابة، وذهب النصراني فتعجبـت مـن ذلك وتبعت الحمل وأنا ذاهب إلى المدينة، فانتهى به إلى العقبـة فأورده إلى الخمَّار بها فإذا خلّ، فقال له: الخمار: ويحـك هـذا خل؟ فقال النصراني: أنا لا أعرف من أين أتيت، ثم ربط الدابة في خان ورجع إلى الصالحين فسأل عن الشيخ فعرفه فجاء إليه فأسلم على يديه.

وله أحوال وكرامات كثيرة جدا، وكان لا يقوم لأحـد دخـل عليه ويقول: (إنما يقوم الناس لرب العالمين).

وكان الأمجد ملك بعلبك إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقـول له: يا أمجد فعلت كذا وكذا، ويأمره بما يأمره وينهاه عما ينهـاه عنه، وهو يمتثل جميع ما يقوله له، ومـا ذاك إلا لصـدقه فـي زهده وورعه وطريقه.

وكان يقبل الفتوح، وكان لا يدخر منه شيئا لغـد، وإذا اشـتد جوعه أخذ من ورق اللوز ففركه واستفه، ويشرب فوقـه المـاء

البارد رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

وذكروا أنه كان يحج في بعض السنين في الهواء، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة من الزهاد وصالحي العباد، ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء.

وأول من يذكر عنه هذا: حبيب العجمي، وكان من أصحاب الحسن البصري ثم من بعده من الصالحين رحمهم الله أجمعين.

فلما كان يوم جمعة من عشر ذي الحجة من هذه السنة صلى الصبح عبد الله اليونيني وصلاة الجمعة بجامع بعلبك، وكان قد دخل الحمام يومئذ قبل الصلاة وهو صحيح، فلما انصرف قال للشيخ داود المؤذن وكان يغسل الموتى: أنظر كيف تكون غدا، ثم غدا الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه ومن أحسن إليه ولو بأدنى شئ ويدعو لهم، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه، ثم استند يذكر الله وفي يده سُبحة، فمات وهو كذلك جالس لم يسقط، ولم تسقط السُبحة من يده.

وكانت وفاته يوم السبت وقد جاوز ثمانين عاما أكرمه الله تعالى.

وكان الشيخ محمد الفقيه اليونيني من جملة تلاميذه وممن يلوذ به، وهو جد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك.

٩- وذكر في (البداية والنهاية) الجزء الثالث عشر صفحة

(١٣٨):

في ذكر سنة ثلاثين وستمائة وممن توفى من الأعيان في هذه السنة من المشاهير فذكر منهم:

(الشيخ شهاب الدين السهروردى[1]) صاحب عوارف المعارف، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن حمويه، واسمه عبد الله البكرى البغدادى شهاب الدين أبو حفص السهروردى، شيخ الصوفية ببغداد.

كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين، وتردد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مرارا، وجعلت له أموال جزيلة ففرقها بين الفقراء والمحتاجين.

وقد حج مرة وفى صحبته خلق من الفقراء لا يعلمهم إلا الله عز وجل.

وكان فيه مروءة وإغاثة للملهوفين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكان يعظ الناس وعليه ثياب البذلة، قال مرة في ميعاده هذا البيت وكرره:

ما فى الصحاب أخو وجد تطارحه

إلا محب له فى الركب محبوب

---

(١) إليه مرجع سلاسل الطريقة السهروردية.

فقام شاب وكان فى المجلس فأنشده:

كأنما يوسف فى كل راحلة   وفى كل بيت منـــه يعقوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب ليعتذر إليه فلم يجده، ووجد مكانه حفرة فيها دم من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت.

وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده، وأثنى عليه خيرا، وأنه توفى فى هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة. رحمه الله تعالى.

١٠- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الثالث عشر صفحة (١٤١):

فى ذكر سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ومن توفى فى هذه السنة من الأعيان .. نذكر منهم:

(الشيخ عبد الله الأرمنى) أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد، وسكنوا البرارى والجبال والوهاد، واجتمعوا بالأقطاب والأبدال والأوتاد(١)، وممن كانت له الأحوال والمكاشفات والمجاهدات والسياحات فى سائر النواحى والجهات، وقد قرأ

---

(١) لاحظ هنا معرفة المسلمين بالأقطاب والأبدال والأوتاد والذين ينكرهم أدعياء السلفية اليوم.

القرآن فى بدايته، وحفظ كتاب القدورى على مذهب أبى حنيفة، ثم اشتغل بالمعاملات والرياضات. ثم أقام آخر عمره بدمشق حتى مات بها ودفن بسفح قاسيون.

وقد حكى عنه أشياء حسنة منها:

أنه قال: اجتزت مرة فى السياحة ببلدة فطالبتنى نفسى بدخولها فآليت أن لا أستطعم منها بطعام، ودخلتها، فمررت برجل غسَّال فنظر إلىَّ شزرا فخفت منه وخرجت من البلد هاربا، فلحقنى ومعه طعام، فقال: كل فقد خرجت من البلد، فقلت له: وأنت فى هذا المقام وتغسل الثياب فى الأسواق؟ فقال: لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى شئ من عملك، وكن عبداً لله فإن استعملك فى الحسن فارض به، ثم قال رحمه الله:

ولو قيل مت قلت سمعا وطاعة

وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا

..وذكر له ابن كثير حكايات أخرى.

١١- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الثالث عشر صفحة (٢٢٧):

فى ذكر سنة ثمان وخمسين وستمائة ومن توفى فيها من الأعيان.. فذكر منهم: (الشيخ محمد الفقيه اليونينى) الحنبلى البعلبكى الحافظ، هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن

أبى الرجال أحمد بن على بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق بن الإمام جعفر الصادق ﷺ.

كذا نقل هذه النسبة الشيخ قطب الدين اليونينى من خط أخيه الأكبر أبى الحسين على، وأخبره أن والده قال له: نحن من سلالة جعفر الصادق، قال: وإنما قال هذا عند الموت ليتحرج من قبول الصدقات.

أبو عبد الله بن أبى الحسين اليونينى الحنبلى تقى الدين الفقيه الحنبلى الحافظ المفيد البارع العابد الناسك، ولد سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة.

وسمع الخشوعى وحنبلا والكندى والحافظ عبد الغنى وكان يثنى عليه، وتفقه على الموفق ولزم الشيخ عبد الله فانتفع به، وكان الشيخ عبد الله يثنى عليه ويقدمه ويقتدى به فى الفتاوى.

وقد لبس الخرقة من شيخ شيخه عبد الله البطائحى، وبرع فى علم الحديث، وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو، وحفظ قطعة صالحة من مسند أحمد، وكان يعرف العربية أخذها عن التاج الكندى، وكتب مليحا حسنا.

وكان الناس ينتفعون بفنونه الكثيرة، ويأخذون عنه الطرق الحسنة، وقد حصلت له وجاهة عظيمة عند الملوك.

توضأ مرة عند الملك الأشرف بالقلعة حال سماع البخارى

على الزبيدى، فلما فرغ من الوضوء نفض السلطان تخفيفته وبسطها على الأرض ليطأ عليها، وحلف السلطان له إنها طاهرة ولابد أن يطأ برجليه عليها ففعل ذلك..

وبسط ابن كثير فى مناقبه وعلو مرتبته، ثم قال:

وكانت الملوك كلهم يحترمونه ويعظمونه ويجيئون إلى مدينته بنو العادل وغيرهم.

وكذلك كان مشايخ الفقهاء كابن الصلاح وابن عبد السلام وابن الحاجب والحصرى وشمس الدين بن سنى الدولة وابن الجوزى وغيرهم يعظمونه ويرجعون إلى قوله لعلمه وعمله وديانته وأمانته.

وقد ذكرت نه أحوال ومكاشفات وكرامات كثيرة رحمه الله، وزعم بعضهم أنه قطب منذ ثنتى عشرة سنة فالله أعلم.

وذكر ولده قطب الدين أنه انتقل فى التاسع عشر من رمضان من هذه السنة عن ثمان وثمانين سنة ﷺ.

١٢- وذكر فى (البداية والنهاية) الجزء الثالث عشر صفحة (٣٤٢):

فى ذكر سنة أربع وتسعين وستمائة ومن توفى فيها من الأعيان.. فذكر منهم:

(الفاروقي الشيخ الإمام العابد الزاهد) الخطيب عز الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ محي الدين إبراهيم بن عمر بن الفرج ابن سابور بن علي بن غنيمة الفاروقي الواسطي، ولد سنة أربع عشرة وستمائة وسمع الحديث ورحل فيه، وكانت له فيه يد جيدة، وفي التفسير والفقه والوعظ والبلاغة، وكان دينا ورعا زاهدا، قدم إلى دمشق في دولة الظاهر فأعطي تدريس الجاروضية وإمام مسجد ابن هشام، ورتب له فيه شئ على المصالح، وكان فيه إيثار وله أحوال صالحة ومكاشفات كثيرة.. وذكر له الحافظ ابن كثير رحمه الله حكايات ومقامات، ثم قال: وكان يوم موته يوما مشهودا بواسط، وصلى عليه بدمشق وغيرها رحمه الله، وكان قد لبس خرقة التصوف، من السهروردي، وقرأ القراءات العشر، وخلف ألفي مجلد ومائتي مجلدا، وحدث بالكثير، وسمع منه البرزالي كثيرا صحيح البخاري، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجة، ومسند الشافعي، ومسند عبد بن حميد، ومعجم الطبراني الصغير، ومسند الدارمي، وفضائل القرآن لأبي عبيد، وثمانين جزء وغير ذلك.

١٣- وذكر في (البداية والنهاية) الجزء الرابع عشر صفحة (٢٢٧):

في ذكر سنة تسع وأربعين وسبعمائة قال فيه:

وفي يوم السبت ثالث رجب صلى على الشيخ على المغربى أحد أصحاب الشيخ تقى الدين بن تيمية بالجامع الأفرمى بسفح قاسيون، ودفن بالسفح رحمه الله، وكانت له عبادة وزهادة وتقشف وورع، ولم يتول فى هذه الدنيا وظيفة بالكلية، ولم يكن له مال بل كان يأتى بشئ من الفتوح يستفقه قليلا قليلا، وكان يعانى التصوفى، وترك زوجة وثلاثة أولاد رحمه الله(١).

---

(١) لاحظ أن ابن كثير يثنى كثيراً على السادة الصوفية، ويمدح طريقهم، فليت أدعياء السلفية يكفون ألسنتهم عن الخوض فى أهل الله وخاصته، الذين عمّروا قلوبهم، وجعلوا جوارحهم فى طاعته ونصرة دينه.

الفصل الرابع

محمد بن عبد الوهاب النجدى

لقد اهتمت جامعة محمد بن سعود بالرياض بعقد (أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1]) نشرت فيه جميع مؤلفات محمد ابن عبد الوهاب، فجاءت جميعها فى إثنى عشر مجلد.

وقد طالعنا بفضل الله كل هذه المجلدات صفحة صفحة، فلم نجد فيها فى أى مقام أى طعن أو رد أو إنكار من محمد بن عبد الوهاب على التصوف، أو على أحد من مشايخ التصوف بسبب تصوفه، وهذه المجلدات موجودة ميسرة تباع فى الأسواق والمكتبات لأى أحد أن يقتنيها ويطالعها ويتحقق فيما ذكرناه.

بل إننا قد وجدنا قطعات مختلفة فى مؤلفاته هذه من كلامه الذى يتبين منه بجلاء ووضوح موقفه الصريح من التصوف والسادة الصوفية ﷺ، وسنذكرها فيما يأتى بتوفيق الله وإحسانه، وعليه سبحانه التكلان:

١- القسم الثالث من مؤلفات (محمد بن عبد الوهاب) جزء (فتاوى ومسائل)، قام بجمعها وتصحيحها ومقابلتها على أصولها: الشيخ صالح بن عبد الرحمن الأطرم ومحمد بن عبد

---

(١) كعادة الصوفية فى الاحتفال بموالد الأولياء أسبوعا كاملا.

الرزاق الدويس.

في الصفحة رقم (٣١) المسألة الخامسة، سئل رحمه الله عن مسائل مفيدة فأجاب:

(إعلم- أرشدك الله- أن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا ﷺ بالهدى الذى هو العلم النافع، ودين الحق الذى هو العمل الصالح.

إذا كان من ينتسب إلى الدين: منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به كالفقهاء، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية. فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين[1].

ومن أعظم ما امتن الله به عليه وعلى أمته أن أعطاه جوامع الكلم، فيذكر الله تعالى فى كتابه كلمة واحدة تكون قاعدة جامعة يدخل تحتها من المسائل ما لا يحصى.

وكذلك يتكلم رسول الله ﷺ بالكلمة الجامعة، ومن فهم هذه المسألة فهما جيدا فهم قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة:٣)، وهذه الكلمة أيضا من جوامع الكلم..إلخ).

٢- القسم الثانى من مؤلفات محمد بن عبد الوهاب (الفقه) المجلد الثانى صفحة (٤) فى رسالة (أربع قواعد تدور الأحكام

---

(١) أى: الفقه والتصوف، كما هو واضح.

عليها) يقول فيها:

(إعلم- رحمك الله- أن أربع هذه الكلمات مع اختصارهن يدور عليها الدين سواء كان المتكلم يتكلم فى علم التفسير، أو علم الأصول، أو علم أعمال القلوب الذى يسمى علم السلوك[١]، أو فى علم الحديث، أو فى علم الحلال والحرام والأحكام الذى يسمى علم الفقه، أو فى علم الوعد والوعيد، أو فى غير ذلك من أنواع علوم الدين.. إلخ).

٣- مؤلفات محمد بن عبد الوهاب، القسم الرابع: (التفسير ومختصر زاد المعاد). مختصر زاد المعاد صفحة (٨٤) تأليف محمد بن عبد الوهاب. قال: فصل (فى هديه ﷺ فى الإعتكاف).

(لما كان صلاح القلب واستقامته فى طريق سيره إلى الله تعالى متوقفا على جمعيته على الله، ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله، فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله، وكانت فضول الشراب والطعام، وفضول مخالطة الأنام، وفضول المنام، وفضول الكلام مما يزيده شعثا، ويشتته فى كل واد، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، ويضعفه أو يعوقه ويوقفه، اقتضت حكمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات

---

(١) وهو التصوف كما هو معلوم.

المعوقة له عن سيره إلى الله وشرعه بقدر المصلحة بحيث ينتفع به العبد فى دنياه وأخراه ولا يضره.

وشرع لهم الاعتكاف الذى مقصوده وروحه عكوف القلب على الله والانقطاع عن الخلق والاشتغال به وحده، فيصير أنسه بالله بدلا عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة فى القبر.

ولما كان المقصود إنما يتم مع الصوم، شرع الاعتكاف فى أفضل أيام الصوم وهو العشر الأخير من رمضان، ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله رسول الله ﷺ إلا مع الصوم.

وأما الكلام فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع فى الآخرة.

وأما فضول المنام فإنه شرع لهم من قيام الليل ما هو من أفضل السهر وأحمده عاقبة، وهو السهر المتوسط الذى ينفع القلب والبدن ولا يعوق العبد عن مصلحته.

ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك(١) على هذه الأركان الأربعة، وأسعدهم بها من سلك فيها المنهاج المحمدى

---

(١) وهم الصوفية كما هو معلوم.

فلم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين، وقد ذكرنا هديه فى صيامه وقيامه وكلامه، فلنذكر هديه فى اعتكافه).

٤- مؤلفات محمد بن عبد الوهاب. (ملحق المصنفات) (هذه مسائل) صفحة (١٨٢):

قال: (ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه وتبليغه لغير العرب بالترجمة، وإذا تدبر المؤمن العليم بسائر مقالات الفلاسفة وغيرهم من الأمم وجد القرآن والسنة كاشفا لأحوالهم مبينا لحقهم، مميزا بين حق ذلك وباطله، والصحابة أعلم الخلق به، وهم أقوم الخلق بجهاد الكفار والمنافقين، كما قال ابن مسعود: من كان مستنا فليستن بمن مات فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

فأخبر عنهم بكمال بر القلوب مع كمال عمق العلم، وهذا قليل فى المتأخرين كما يقال: من العجائب: فقيه صوفى وعالم زاهد.

فإن أهل بر القلوب يقترن بهم كثير لعدم المعرفة التى توجب

المنهى عن الشر والجهاد[1]، وأهل التحمق فى العلم قد يــذكرون من معرفة الشرور والشبهات ما يوقعهم فى الغى والضلال.

وأكثر المتعمقين فى العلم المتــأخرين يقتــرن بــه التكلــف المذموم من المتكلمين والمتعبدين، وهو القول والعمل بــلا علــم وطلب ما لا يدرك خلافا لما عليه الصحابة.

وهذا منّ من الله على هذه الأمة كما فى أثر المسيح (أهــب لهم من علمي وحلمى) وهذا من خواص متابعة الرسول، فمــن كان له أتبع كان فيه أكمل).

٥- (ملحق المصنفات) (هذه مسائل). وفى صفحة ١٢٤ ذكر عقب بحث عمن أنكر محبة الله ومن أثبتها، قال:

(فنفس محبته أصل عبادته، والشرك فيها أصل الشرك فــى عبادته، أولئك فيهم شبه من النصارى وفيهم شرك مــن جــنس شرك النصارى.

ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون يُوصون كثيرا بمتابعــة العلم، قال بعضهم: (ما ترك أحد شيئا من السنة إلا لكبــر فــى نفسه).

وهو كما قال، فإنه إذا لم يكن متبعا لما جاء به الرسول كــان

---

(١) لعلها: الفساد المحقق.

متبعا لهواه بغير هدى من الله، وهذا عيش النفس، وهو من الكبر، فإنه شعبة من قول الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ (الأنعام:١٢٤) أ.هـ.

رسالة ابن عبد الوهاب إلى القصيم:

إن بعض خصوم الصوفية ينتسبون إلى الطائفة التابعة لمحمد ابن عبد الوهاب مع أنه لا ينكر كرامات الأولياء ومكاشفاتهم، ولا يكفر من توسل بالصالحين، ولا يكفر ابن الفارض ولا ابن عربى وهذا نص رسالته.

فقد جاء فى الرسالة الأولى لمحمد بن عبد الوهاب الموجهة إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته ما خلاصته: (أقر بكرامات الأولياء، ومالهم من المكاشفات، ولا أكفر أحداً من المسلمين بذنب، ولا أخرجه من دائرة الإسلام.. وأحكم عليهم بالظاهر، وأكل سرائرهم إلى الله.

وإن سليمان بن سحيم افترى عليَّ أمورا لم أقلها، ولم يأت أكثرها على بالى.

فمنها قوله: إنى مبطل كتب المذاهب الأربعة.. وإنى خارج عن التقليد.. وإنى أكفر من توسل بالصالحين.. وإنى أكفر البوصيرى لقوله: يا أكرم الخلق.. وإنى أحرم زيارة قبر الرسول.. وإنى أكفر ابن الفارض وابن العربى.. وإنى أحرق

دلائل الخيرات وروض الرياحين وأسميه: روض الشياطين.

جوابى على هذه المسائل أن أقـول: سـبحانك هـذا بهتـان عظيم..) أهـ من مؤلفات محمد بـن عبـد الوهـاب- القسـم الخامس- الرسائل الشخصية- ص١١. وأنظرها فـى الرسـالة الحادية عشرة ص٦٤.

٦- وقد نقل الشيخ محمد منظور النعمـانى (رئـيس قسـم الحديث بدار العلوم ندوة العلماء بلكناؤ الهند (سـابقا)، وعضـو المجلس التأسيسى للجامعة الإسلامية دار العلـوم ديوبنـد) فـى رسالته (دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب) طبعـة مكتبة الفرقان، صفحة (٧٦) بعد ما بين أن للشيخ عبـد الله بـن محمد بن عبد الوهاب رسالة مستقلة شاملة تلقى الضوء الساطع على دعوة وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، يقول فيها مـا نصه:

(فأخبرناهم بأن الذى نعتقد وندين الله هو مذهب أهل السـنة والجماعة وسلف الأمةِ فى أصول الدين، وأما فى الفروع فـنحن على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا ننكر مـن قلـد الأئمـة الأربعة، ولا نستحق مرتبة الاجتهاد ولا أحد منا يدعيـه، إلا أن فى بعض المسائل إذا صح لنا نص جلى من كتاب الله أو السـنة غير منسوخ ولا مخصوص ولا معارض بأقوى منه وقـال بـه

أحد من الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب، وقد سبق من أئمة المذاهب الأربعة اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفة لمذهب الملتزمين تقليد صاحبه.. إلخ).

ويُنهى عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رسالته هذه بقوله:

(ولا ننكر الطريقة الصوفية، وتنزيه الباطن من رذائل المعاصى المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهج القويم المرعى، إلا أننا لا نتكلف له تأويلا فى كلامه ولا فى أفعاله، ولا نعول ونستعين ونستنصر ونتوكل فى جميع أمورنا إلا على الله تعالى، وهو حسبنا ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم[1]).

---

(١) الهدية السنية صفحة ٥٠، ورسالة عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدى التى قدمنا منها مقتطفات موسعة، مندرجة فى مجموع الرسائل التى تشرح دعوة ابن عبد الوهاب ومبادئها، المسمى بالهدية السنية، وأمامنا طبعتها الثانية التى نشرها رشيد رضا صاحب (المنار) مع تعليقاته من مطبعة المنار بمصر فى سنة ١٣٤٤هـ.

الفصل الخامس

محمود خطاب السبكى الخلوتى

مؤسس الجمعية الشرعية

يقول الشيخ محمود خطاب السبكي فـــى مختصـــر (أعـــذب المسالك المحمودية إلى منهج السادة الصوفية) تحقيـــق وتقـــديم سعيد عبد الفتاح طبعة ١٩٩٦م ص ٣٦:

(إنه لما أبرز الحق جل علاه متعلق إرادتـــه الإلهيـــة مـــن سلوكى طريق السادة الخلوتية، بمراعاة ملاذى وقدوتى إلـــى الله تعالى البطل أستاذى السيد الأكمل والهمام الأجل سيدى الشـــيخ أحمد بن سيدى محمد أبى جبل، ذى الفضائل السنية والبركـــات الأوحدية، طيب الله ثراه وجعل الفردوس منقلبه ومثـــواه، دانيـــا من حضرة سيد الأنام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو بسنده عن شيخه وقدوته إلى ربه الفرد سيدى الشيخ الســـيد أحمد ورد، عن شيخه سيدى محمد أبى عبد الله الكفراوى، عـــن شيخه سيدى أحمد الصاوى، عن شيخه أبى البركـــات ومهـــبط الرحمات منة القدير سيدى أحمد الدردير، عن سيدى محمد بـــن سالم الحفناوى، عن سيدى مصطفى البكرى.. إلى آخر السلســـلة الطيبة رحمهم الله جميعا، وألحقنا بهم على أحسن حال، إلـــى أن قال رحمه الله:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ويقول ص ٤١ عن حد علم التصوف:

حده علما بأنه: علم يعرف به صلاح القلب، وسائر الحواس.

أي: يعرف به كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس وصفاتها المذمومة، كالحقد، والحسد، والغش، والغل، وطلب العلو، والكبر، والغضب، والطمع، والبخل، وتعظيم الأغنياء، وتحقير الفقراء، ونحو ذلك.

فهو كناية عن التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل، وعملا بأنه الأخذ بالأحوط من المأمورات، واجتناب المنهيات والاقتصار عن الضروريات من المباحات.

وقال بعضهم: هو الجد في السلوك إلى ملك الملوك.

وقال بعضهم: هو حفظ الحواس ومراعاة الأنفاس.

وقال بعضهم: هو الإكباب على العمل والإعراض عن العلل. أي: الانكباب والانهماك على العمل التكليفي، والبعد عما يعطل ثمرة ذلك العمل من الرياء ونحوه.

وقال بعضهم: هو استعمال الوقت فيما هو أولى به.

ولذا قالوا: الصوفي ابن وقته.

وقال الجنيد: هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به.

أى: يميتك عن نظرك لنفسك، ويحييك بذكره ومناجاته، وهذا أعلى درجات التصوف.

وقيل غير ذلك، والمعنى فى الكل متقارب، وقال القدوة (الشعرانى)[1]: هو عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار، وحقائق تعجز الألسن عنها.

ويؤخذ منه أن علم التصوف إنما يدرك بالذوق وهو المعول عليه، ولذا قال بعضهم:

علم التصوف علم ليس يدركه
إلا أخو فطنة بالحق معروف
وكيف يعرفه من ليس يشهده
وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف ؟

والحاصل: أن علم التصوف مأخوذ من الصفاء، وهو خلوص الباطن من الشهوات والكدورات، ومبناه على التمسك بآداب الشريعة والتباعد عن الشبهات، وحفظ الحواس من كل ما يغضب الله تعالى ومراعاة الأنفاس، فلا يضيع نفساً فى غير طاعة للتحرز من الغفلات، فإن الإنسان يخرج منه كل يوم

---

(١) الشعرانى هو: عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن محمد بن زرقا بن موسى بن السلطان أحمد التلمسانى الفقيه، المحدث، والصوفى.

وليلة مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نفس ينبغى له أن يراعيها ولا يضيعها.

الطريقة والحقيقة والشريعة:

قال السبكى ص٤٣: التصوف بمعنى العمل هو: الطريقة.

وأما الشريعة فهى: الأحكام التى وردت عن الشارع المعبر عنها بالدين.

وأما الحقيقة فهى: أسرار الشريعة ونتيجة الطريقة.

فهى علم ومعارف تحصل لقلوب السالكين بعد صفائها من كدورات الطبائع البشرية، ولا شئ أقرب لصفاء القلب من كثرة ذكر لا إله إلا الله، مع الآداب التى ذكرها أهل الله تعالى.

فائدة التصوف:

يقول السبكى ص٥٤:

فائدة التصوف إصلاح الإنسان ظاهراً وباطناً.

وغايته: الفوز بأعلى المراتب فى الآخرة.

وواضعه: العارفون الآخذون له عن النبى ﷺ بالسند المتصل.

ونسبته: أنه فرع علم التوحيد، واستمداده من الكتاب والسنة.

واسمه: علم التصوف.

وحكمه: الوجوب.

ومسائله: قضاياه التي يبحث فيها عن العوارض الذاتية كالفناء، والبقاء، والمراقبة، والمشاهدة، والجلال، والجمال، وغير ذلك.

ليس يخفى أن غاية المقصود من العبارات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق، والشبع يمنع منه، والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة، فالتحدى: أن تكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنة.

قال بعضهم: إذا جاع القلب وعطش صبا ورق، وإذا شبع عمى وغلظ.

قال جعفر بن نصير: أمرنى الجنيد أن أشترى له التين الوزيرى، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور، فوضعها فى فمه ثم ألقاها، وجعل يبكى، ثم قال: احمله، فقلت له فى ذلك.

فقال: هتف بى هاتف: أما تستحى، تركته من أجلى، ثم تعود إليه.

الصوفى:

وعن تعريف الصوفى يقول السبكى ص٤٨:

أما الصوفى: فهو من تصفى من الكدر، وامتلأ من العبر، وانقطع لعبادة ربه عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر.

ولذا قيل:

يا واصفى أنت فى التحقيق موصوفى
وعارفى لا تغالط أنت معروفى
إن الفتى من بعهده فى الأزل يوفى
صافى فصوفى لهذا سمى الصوفى[1]

وليس كمن قيل فيه:

لبست مرقعاً صوفاً وقلتا   أنا الصوفى ليس كما زعمتا

أول درجات التصوف: الإعراض عن الدنيا حلالها وحرامها، ليندفع عن ذلك سائر الأخلاق الذميمة التى من جملتها الشح، ويتفرغ للتخلق بالأخلاق الحميدة من التوكل، والرضا، والمراقبة، والمحبة، والأنس، ونحوها.. فمن تخلى عن الصفات الذميمة بالصفات الحميدة سمى صوفياً. فإذا أخل بأول الدرجات كان على أقبح القبيح من الصفات.

قال (ابن بنان): كل صوفى كان هم الرزق قائماً فى قلبه،

---

(١) هذان البيتان يذكران فى كثير من المراجع هكذا:

تنازع الناس فى الصوف واختلفوا   قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف
وليست أمنح هذا الاسم غير فتى   صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

فلزوم العمل بالعلم أقرب له من غيره فى الخلوص من ذلك، لأن عمدته فراغ قلبه من المشغلات، وأشد المشغلات له ما تدعو الحاجة إليه من أنواع الدنيا، فمتى كان القلب مشغولاً بذلك اشتغل عما خلق له من معرفة الله تعالى ومعرفة الآخرة، ومتى قوى يقينه وتوكل على مولاه بما يحتاجه أعرضت نفسه عن الأسباب الدنيوية، وسكن قلبه لله تعالى.

الفرق بين الصوفى والمتصوف:

قال أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازى: الفرق بين الصوفى والمتصوف: أن الصوفى: من صفّاه الحق، واختاره؛ من غير تكلف ولا اجتهاد.

والمتصوف: المزاحم على المراتب مع التكلف وكمون رغبة فى الدنيا.

الفقير:

قال سمنون بن حمزة وقد سئل عن الفقير الصادق: هو الذى يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى، ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقر، وأنشد:

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم

وكان بذكر الخلق يهزا ويمرح

فلما دعا قلبى هواك أجابه

فلســت أراه عــن جنــابك يبــرح

رميــت ببــين منك إن كنــت كاذباً

إن كــنت فى الدنــيا بغــيرك أفرح

وإن كان شــئ فى البــلاد بأســرها

إذا غبــت عن عينى لعيــنى يملح

فإن شئت واصلنى وإن شئت لا تصل

فلســت أرى قلبى لغــيرك يصــلح

البين: الفراق، وهو المراد هنا، ويطلق أيضاً على الوصــل، فهو من أسماء الأضداد وعذاب البين هو لا يقع.

(مقام البسط مزلة قدم للعبد فربما هفا فيه هفوة).

الصوفية:

وعن تعريف الصوفية يقول السبكى ص٥٠:

الصوفية: قوم اصطفاهم الله تعالى فاتصفوا بكل صفة جميلة شرعاً من الزهد والانقطاع للعبادة وغير ذلــك مــن الأخــلاق المحمدية، فوصفهم لا يضاهى وفضلهم لا يتناهى، وقد سئل أبو الحسن بنان بن محمد الحمال؛ عن أجمل أحوالهم فقــال: الثقــة بالمضمون، أى: بالرزق، ليستريح من المشغلات عن الطاعات، والقيام بالأوامر، أى: بالمطلوب بها مــن العبــادات، ومراعــاة السر، أى: خواطر القلب، لتكون الأعمال خالصــة لله تعــالى لا لطلب الجزاء الذى وعد الله به عليها ولا لغيره، والتخلــى عــن

الكونين، أى: كونى الدنيا والآخرة، بأن يعرض العبد عن حظوظ النفس فلا يسكن بقلبه لغير مولاه فيهما.

وحاصل الباب: أن التصوف أمر عزيز جليل، معدنه من الناس نزر قليل، وقد وقع فى تعريفه أقوال كثيرة تفوق على ألف قول إلا أن معانيها متقاربة.

رجال الله تعالى وفضل التصوف وأهله:

قال السبكى ص٥٣: قال سيدى محيى الدين بن العربى[1] فى الفتوحات: رجال الله تعالى ثلاثة أصناف لا رابع لهم: عُبّاد، وصوفية، وملامية، وهم كُمّل الرجال.

فضابط العباد: أنهم رجال غلب عليهم الزهد، والتبتل، والأفعال الظاهرة المحمودة، لا يرون شيئاً فوق ما هم عليه، ولا معرفة لهم بالأحوال ولا بالمقامات، ولا رائحة عندهم من العلوم الإلهية الوهبية ولا بالمعارف والكشوفات، ويخافون على أعمالهم من تحبطها لاعتمادهم عليها دون الله.

وضابط الصوفية: أنهم رجال فوق هؤلاء العباد، لأنهم يرون الأفعال كلها لله مع ما هم عليه من الجد، والاجتهاد، والورع،

---

(١) لاحظ أدب السبكى مع إمام الصوفية محى الدين بن عربى الذى تتهمه أدعياء السلفية بالكفر والزندقة والإلحاد.

والزهد، والتوكل وغير ذلك، ويرون أن ما هم فيه بالنظر للمقامات التى فوقهم لا شئ، ولكن هم مع حسن أخلاقهم وفتوتهم أهل رعونة ونفوس بالنظر لأهل الطبقة الثالثة، وعندهم رائحة الدعاوى.

وضابط الملامية: الذين هم على قدم أبى بكر الصديق ﷺ، أنهم رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب، ولا يتميزون عن الناس بحالة زائدة يعرفون بها، يمشون فى الأسواق، ويتكلمون مع الناس بكلام العامة، وقد انفردوا بقلوبهم مع الله لا يتزلزلون عن عبوديتهم قط، ولا يذوقون للرياسة طعماً لاستيلاء الربوبية على قلوبهم، فهم أرفع الرجال مقاماً، رضى الله عنهم أجمعين.

قال سيدى الأستاذ الإمام(١) رحمه الله: وبالجملة، ففضل التصوف وفضل أهله كالشمس فى رابعة الفلك، فلا حاجة إلى طول الكلام.

ثم اعلم: أنه لا يمكن السير إلى الله تعالى، والتخلق بأخلاق الصوفية وغيرها من الأخلاق المرضية إلا بعد معرفة عقائد الإيمان، التى هى لسائر الأعمال كالروح للإنسان، إذ لا امتثال ولا عبادة إلا بعد معرفة الآمر الناهى المعبود، لأن الجهل

---

(١) المقصود به: الشيخ محمود خطاب السبكى.

بمعرفة ما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز، ينافى كونه المقصود، وكل عاقل لا يؤمن بشئ إلا بعد إدراك أوصاف ما به يصدق حتى يعلم أنه الضار النافع لمن عصاه، أو أطاعه، ولوعده أو وعيده يتحقق، وقد أجمعت الأمة على أن من لم يعرف ما يتعلق بربه سبحانه وتعالى من عقائد التوحيد يكون طريداً، فيخلد فى العذاب الشديد، وقد تقدم أن التصوف فرع عن التوحيد ولا يوجد الفرع بدون أصله بدون ترديد.

الذكر عند الصوفية:

ويقول الشيخ السبكي عن خواص الذكر ص ١٤٦:

ومن خواص الذكر إذا داوم المريد عليه أن يصل أثره إلى جميع الأعضاء، ويظهر تصرفه فى الجوارح والأعضاء، فإذا وصل إلى عضو يحدث فيه ضربان مثل ضربان العروق النافضة، وتكثر الاختلاجات حتى لا يبقى منه جزء من لحمه ولا من عظمه إلا ويجد فيه حركة واختلاجاً، وقد تقوى مع الملازمة على الذكر حتى تصدر أصواتاً وكلاماً، حتى يسمع العبد من جميع جوارحه وأجزائه أصواتاً، بل يسمع من قلبه لله أسماء وأذكاراً لم يسمعها قط من أحد ولا رآها فى كتاب بعبارات مختلفة وألسن متتابعة لم يسمعها ملك ولا آدمى.

وفى ذكر القلب والاستحضار يرد على الذاكر أحوال يتوهم

أنه يربو ويعظم حتى كأنه أكبر من كل شئ، ثم يرد عليه من الحق قهر من الخوف، فيرجع إلى حاله الأول.

وها هنا يخاف عليه من النفس والشيطان، فيقصر فى الذكر بالتصريح، فترجع فتأخذ روزنة قلبه فى الانسداد كما أخذت فى الانفتاح بالتجريد حتى تنسيه بالكلية، فيكون تحت القهقرى، والعياذ بالله تعالى، فيقع فى الهلاك إذ الرجوع بعد الإقبال يوقع فى شدة الأهوال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤)، ومن عرف طريقاً، ثم أعرض عنها عذبه الله عذاباً أليماً، وهذا أقبح من الامتناع عن الشروع، إذ مثله مثل من كفر بعد أن آمن.

الإخلاص فى الذكر:

قال الشعرانى فى البحر المورود: أخذ علينا العهود أن لا نطلب وقوع الراحة ما دمنا فى هذه الدار، فإن درجاتنا فى الجنة إنما هى على قدر التعب، وكيف يطلب عبد الراحة فى هذه الدار والله تعالى يقول لرسول ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (الشرح: ٧)، أى: إذا فرغت من أمر أنت فيه فانصب فى كل أمر يأتيك فى كل لحظة، فأين الراحة والفراغ، فما تنعم من تنعم في هذه الدار إلا لغفلته عما جعله الله عليه من الحقوق والسلام، فاعلم ذلك وإياك من ظاهر قول بعضهم: حب ونم، والله يتولى

هداك.

ثم اعلم أن الدرجة الرفيعة المتقدم ذكرها الثابتة لأهل الذكر، إنما هى للمخلصين الذين يعبدون الله لذاتـــه، حضـــر النـــاس أم كانوا غائبين، الذين يعلمون أن الله هو الضار النافع ومـــا عـــداه وصفاته من المفتقرين، ولذا قالوا: لا ينبغى للشخص أن يتـــرك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء، بـــل يـــذكر بهما جميعاً، ويقصد وجه الله تعالى، ولا يتـــرك العمـــل لأجـــل الناس لأنه من الرياء، والعاقل من يذكر الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم، ولا ينظر لفتح ولا كرامة ولا غير ذلـــك مـــن وســـائل النفس الأمارة، فاحذر يا أخى وأخلص لله فى العمل، ولا تطلـــب منه كرامة غير تأهيلك لخدمته، وكن عبد ربك لا عبـــد نفســـك وهواك.

المحبوب عند الله من ادخر له جميع ما وعده به إلى الآخرة ليعطيه له فى دار البقاء، لأن كل من أعطى شيئاً من محبوبـــات النفوس فى هذه الدار نقص رأس ماله وخرج من الدنيا بخسارة، اللهم إلا أن يعطيه الحق تعالى شيئاً ابتداء من غير ميل للـــنفس، فذلك محمول عن صاحبه إن شاء الله تعالى لا ينقص بـــه رأس مال.

فوائد الذكر:

قال بعضهم: إياك ثم إياك أن تميل إلى شئ تألفه النفس، فإن السم معه ولا بد لنفوذ السم من معين، ولا معين له إلا النفس، فقيل له: بماذا يخرج العبد في ذكره عن العلل؟ فقال: إذا ذكر الله تعالى امتثالاً لأمره فقط لا سلماً لحصول شئ دنيوى أو أخروى والله غنى حميد.

وقال سيدى محمد المنير: وحيث لازم الذاكر همته فى الذكر ولم يلتفت إلى الواردات ولا إلى الكرامات ولم يلاحظها، نال المراد وترد عليه علوم حتى يظن أنه فتح عليه بعلوم الأولين والآخرين، فإذا لاحظ ما يرد عليه من العلوم فهو سوء أدب، فيستحق العقوبة وعقوبته فى هذه الحالة أن يرد إلى حال الفهم، والفرق بين حال الفهم والعلم: أن العلم وجود يرد على القلب من حيث العلم، والفهم نظر إلى ذلك العلم، فإذا نظر إلى الفهم فقد أساء أدبه، وعقوبته أن يرد إلى حال الغفلة.

آداب الذكر:

إعلم: أنه لا يحصل لك الفتح إلا بالتخلق بآداب الذكر، لأن كل عبادة خلت عن الأدب فهى قليلة الجدوى، وأجمع الأشياخ على أن العبد يصل بعبادته إلى حصول الثواب، ولا يصل إلى حضرة ربه إلا إن صحبه أدب فى تلك العبادة.

ومن المعلوم أن مقصود القوم، أى: الصوفية، القرب من حضرة الله الخاصة المصطلح عليها عندهم ومجالسته فيها من غير حجاب، وأما الثواب فحكمه عندهم كحكم علف البهائم، قال تعالى: (أنا جليس من ذكرنى)[1]، يعنى ذكرى على وجه الأدب والحضور، وقال ﷺ: (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) (كشف الخفا للعجلونى ١/٧٠ ح١٦٤).

والمراد بالمجالسة: انكشاف الحجب للعبد أنه بين يدى ربه عز وجل، وهو يراه ومطلع عليه، فمتى أدام العبد هذا الشهود، فهو جليس الله، فإذا غاب عن ذكر الشهود خرج من حضرة الله.

وقد أشار بعضهم إلى أنه ليس المراد بحضرة الله تعالى مكاناً فى السموات أو فى الأرض أو غيرهما، كما قد يتوهمه الضعفاء.

وآداب الذكر كثيرة: فقد أوصلها بعضهم إلى ألف أدب، لكن يجمع هذه الآداب كلها عشرون أدباً، فمن لم يتخلق بها فبعيد عليه الوصول.

إعلم: أن منها خمسة سابقة على الذكر، واثنى عشر حاله،

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس، والبيهقى فى شعب الإيمان، والحاكم فى المستدرك، والعجلونى فى كشف الخفا ١/٢٠١ ح٦١١.

وثلاثة بعد الفراغ منه.

فأما الخمسة السابقة عليه:

فأولها: التوبة.. وحقيقتها الرجوع، وشرعاً الرجوع إلى الله تعالى عما هو مذموم فى الشرع إلى ما هو محمود فيه.

ثانياً: الطهارة.. الكاملة من غسل أو وضوء.

ثالثها: السكوت.. والسكوت ليحصل له الصدق بأن يشتغل قلبه بالله، ويقول الله بالفكر دون اللفظ، حتى لا يبقى له خاطر مع غير الله، نجد أن الله غيور لا يحب أن يذكر ويذكر معه غيره، ثم يتبع اللسان القلب.

رابعها: أن يستمد عند شروعه بهمة شيخه، ويستحضره بين عينيه ليكون رفيقه فى السير، تجد.. خذ الرفيق قبل الطريق.

خامسها: أن يرى استمداده من شيخه، وهو حقيقة من رسول الله ﷺ، لأن الواسطة بينه وبينه.

وأما الاثنى عشر التى فى أثنائه:

١) جلوسه على مكان طاهر كجلوسه فى الصلاة.

٢) أن يضع راحتيه على ركبتيه كهيئة جلوس للصلاة.

٣) تطييب مجلس الذكر، وكذا الثياب والفم والبدن بالروائح

الطيبة، نجد.. تطيبوا فإنى أحب الطيب والله يحبه وأخى جبريل.. وبُعد الروائح الكريهة، لأن الروحانيين لا يقبلون الروائح الكريهة، وبانقطاعهم عن مجلس الذكر ينقطع المدد كما هو مشاهد بالذوق.

٤) لبس اللباس الحلال النظيف ولو شراميط الكمان، قال السيد البكرى: ومجلسه حلال، وأن يطهر باطنه بأكل الحلال، فإن الذكر وإن كان ناراً يحرق الأجزاء الناشئة من الحرام، إذا كان الباطن خالياً من الحرام والشبه تكون الفائدة أتم فى التنوير، وأبلغ فى إلقائه النور على النور، وعند ملاقاة الحرام تذهب الإنارة فى التطهير.

٥) اختيار المكان المظلم إن وجد من خلوة أو غيرها.

٦) تغميض العينين لتسد طرق الحواس الظاهرة، وبسدها تنفتح حواس القلب الباطنة.

٧) أن يجعل شخص شيخه بين عينيه ما دام ذاكراً، وهذا عندهم من أوكد الآداب، فإن استغنى عما تقدم من الشروط لا يستغنى عن هذا الشرط، لأن المريد يترقى به إلى الأدب مع الله والمراقبة له، لأن من لا شيخ له فإمامه الشيطان.

٨) الصدق فى الذكر من غير رياء ولا غيره من القواطع حتى يستوى عنده السر والعلانية، نجد.. الإثم ما كان فى باطنك

وكرهت أن يطلع الناس عليه.

٩) الإخلاص، وهو تصفية العمل من كل شوب، وبالصدق والإخلاص يصل الشخص إلى مقام الصديقية.

١٠) أن يختار من صيغ الذكر لا إله إلا الله، فإن لها عند العارفين تأثيراً عظيماً عند القوم، أى: الصوفية، لايوجد فى غيرها من الأذكار، وهى المسماة بذكر الأم، وهذا إذا كان يذكر مع الإخوان، فإن ذكر وحده ذكر بالاسم الذى لقنه له شيخه.

١١) استحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجات المشاهدة فى الذاكرين وأدناها الاستحضار الإجمالى.

١٢) نفى كل موجود من الخلق حال الذكر من القلب سوى الله، لأنه تعالى يغار أن يرى فى قلب عبده المؤمن غيره، ولولا أن الشيخ له مدخل عظيم وباب مستقيم فى تربية المريد ما شرطوا على المريد أن يتخيله فى قلبه ولا ساغ للمريد ملاحظته، وإنما اشترطوا نفى كل موجود فى الكون من القلب ليتمكن لهم تأثير (لا إله إلا الله) أو غيرها من الأذكار بالقلب، ثم يسرى ذلك المعنى إلى سائر الجسد، وأجمعوا على أن المريد يجب عليه أن يذكر بقوة تامة جداً واجتهاداً، بحيث لا يبقى فيه

متسع، ويهتز[١] بهمة وحركة قوية، وهى حالة يستدل بها على أنه صاحب همة تامة، فيرجى له الفتح عن قريب إن شاء الله تعالى، إذ كل من ليست له بداية محرقة ليست له نهاية مشرقة، فيجب على المريد خلع العذار وترك الناس وراء ظهره، ويقبل بهمة عليَّة على عبادة ربه.

قالوا: وينبغى له أن يبتدى بـ (لا) جهة اليمين، ويرجع بـ (إله) ويختم بـ (إلا الله) جهة اليسار مشيراً إلى قلبه حتى تنزل الجلالة على القلب لتحرق سائر الخواطر الردية، وقد أجمعوا على أنه يجب على الذاكر المكلف أن يصحح الكلمة المشرفة كما نطق بها القرآن والمصطفى ﷺ، بأن يحقق الهمزة، ويمد الألف مداً طبيعياً أو أكثر، ويفتح الهاء من إله، ويسكن الهاء من الله.. إلخ.. فإذا ذكر باسم مفرد كـ (الله) ضرب بذقنه على صدره ولا يميل يميناً ولا شمالاً، ويسكن آخره.

ومن لوازم الذاكر أن يصغى حالة الذكر إلى قلبه مستحضراً للمعنى حتى كأن قلبه هو الذاكر وهو يسمعه، ولا يختم حتى يحصل له نوع من الاستغراق بأن يحس من نفسه بحلاوة الذكر، ويحصل له شوق وهيمان، وهذه الآداب تلزم الذكر

---

(١) هذا هو الاهتزاز والتمايل الذى ينكره أدعياء السلفية اليوم ويسمونه رقصاً ولعباً، يؤكده الشيخ السبكى ويصف صاحبه بالهمة التامة.

بنسانه، أما الذكر بقلبه فلا يلزم من ذلك شئ.

وأما الثلاثة التى بعد الفراغ منه:

فالأول: أن يسكن إذ سكت، ويخشع ويحضر قلبه ويجرى الذكر عليه مترقباً لوارد الذكر، فلعله يرد عليه وارد فيعمر وجوده فى لمحة أكثر مما تعمره المجاهدة ثلاثين سنة، فإن للذكر واردات على قلب الذاكر، ولا يتمكن الوارد من القلب إلا بذلك، فيجب التمهل حتى يتم ويتمكن من القلب، فإذا كان الوارد وارد زهد استوت عنده الدنيا، أقبلت أم أدبرت، وإذا كان وارد توكل صار بعد ذلك مفوضاً أمره إلى ربه فى كل شئ، وإذا كان وارد صبر صار بعد ذلك لا ينزعج من تفاقم الأهوال، وهكذا من الواردات.

والمراد بالوارد الملك الحاضر للذكر، فإذا ختم الذاكر أتحفه بتحفة من ربه، لأن العارفين قالوا: جليس الملك لا يخلو من تحفة، فكيف بجليس ملك الملوك، إذ قد تقدم فى الحديث: (أنا جليس من ذكرنى)، بخلاف ما إذا لم يترقب حصول شئ من ذلك، فإنه لا يحصل عنده تحقق بذلك المقام الذى أتى به الوارد.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ (التوبة: ٦٠)، فهذه المسكنة وقت إخراج الصدقات للفقراء والمساكين لا الأغنياء والمتكبرين، فإذا لم يكن عند الذاكر اشتياق وافتقار

وطلب شيئاً لا يعصاه.

قال الإمام الغزالي ﷺ: ولهذه السكتة ثلاثة آداب: أن يستحضر العبد أن الله مطلع عليه، وهو فى قبضته وبين يديه، وأن يجمع حواسه بحيث لا يتحرك منه شعرة واحدة كحال الهرة عند اصطياد الفأرة، وأن ينفى الخواطر كلها ويجرى معنى الذكر على قلبه، وهذه الآداب لا تتم إلا بالمراقبة.

الثانى: أن يكتم نفسه بقدر الطاقة أقلها ثلاثة أنفاس إلى سبعة إلى أكثر بحسب قوة عزمه، وهذا كالمجمع على وجوبه عند الأشياخ، فإنه أسرع إلى تنوير البصيرة وكشف الحجب وقطع خواطر النفس والشيطان.

الثالث: منع شرب الماء عقب الذكر حتى تمضى ساعة أو نصفها، فإن الذكر يورث حرقة وهيجاناً إلى المذكور الذى هو المطلوب الأعظم من الذكر، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة والشوق، فليحرص الذاكر على هذه الثلاثة آداب، فإن نتيجة الذكر لا تظهر إلا بها أشد حرصاً، وهذه الآداب ليست خاصة بطريق الخلوتية، بل هى مطلوبة من كل ذاكر خلافاً لم يتوهمه البعض.

والحاصل: أن هذه الشروط لابد منها لكل من أراد حصول فائدة الذكر القوية بسرعة، لأن الذكر القليل معها يؤثر تنويراً

فى القلب أشد من تأثير الكثير منه الخالى عنها.

وإلا فالذكر يجوز على أى حالة من قيام، وجلوس، ومشى، ورقود، ووضوء، وحدث، وظلمة، ونور، مع حضور الناس أو غيابهم، مغمض عينيه أم لا، مع حضور قلب أو اشتغاله، مع الهمة أو الكسل، مع الهزة يميناً أو شمالاً أو أمامًا أو بدونها إلى غير ذلك، فالذكر ليس محظوراً فى حال من الأحوال إلا فى حالة الجماع أو قضاء الحاجة.

إلا أن تصحيح الذكر على الوجه الشرعى، كما نطق به القرآن العظيم والرسول ﷺ وعلى أتباعه، والخلفاء الراشدون من بعده، وأئمة المسلمين رضى الله عنهم أجمعين، فهو لابد منه، ولا يسمى ذاكراً ولا يثاب عليه إلا إذا كان موافقاً للوجه الشرعى المذكور، وكل من خالفه إلى غيره فهو آثم عرض نفسه للهلاك دنيا وأخرى، وكذلك حكم سامعه.

العهد عند الصوفية:

وأما قوله فيما يتعلق بالعهد ص ١٧٢ من تعريف ودليل وشروط وكيفية فهو:

العهد لغة: التزام شئ ليوفى به فى المستقبل حقاً كان أو باطلاً.

ومنه: تعاهد بنو فلان على كذا.

وشرعاً: التزام قربة دينية، كالتزام الأنصار أنهم يحمون النبى ﷺ مما يحمون منه نساءهم وأولادهم.. ولابد فيه من لفظ دال على المعاهدة، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠)، وقد ثبت من فعله ﷺ كذا فى تحفة السالكين للشيخ محمد السمنودى المعروف بالمنيِّر.

وشروطه: كمال الشيخ، وانقياد المريد، ووجود التسليك، وغير ذلك من الأركان والأصول والشروط.

وكيفيته: أنه إذا جاء مريد إلى شيخ يطلب العهد، فليتطهر الشيخ من الحدث والخبث، ويأمر المريد بالتطهر كذلك ليتأهل لقبول ما يلقيه إليه من الشروط فى الطريق، ويتوجه إلى الله تعالى ويتوسل إليه[1] فى ذلك بسيدنا محمد ﷺ، لأنه الواسطة بينه وبين خلقه، ويضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى بأن يضع راحته على راحته، ويقبض إبهامه بأصابعه ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه (ثلاثاً)، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ويقول المريد كما قال الشيخ، ثم يقرأ الشيخ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ (التحريم: ٨)

---

(١) أدعياء السلفية ينكرون التوسل أشد الإنكار!!.

الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ الآية، وقوله جل ذكره: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ (النحل: ٩١)، ثم يقول له: قل: اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك ورسلك وأنبياءك وأولياءك أنى قبلت هذا شيخاً لى فى الله، ومرشداً وداعياً إليه تعالى، ثم يقول الشيخ: اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك ورسلك وأنبياءك وأولياءك أنى قبلته ولداً فى الله فاقبله، وأقبل عليه وكن له، ولا تكن عليه، وثبته وأيده.

ثم يقول له: أعاهدك يا ولدى على أن لا تباشر كبيرة ولا تصر على صغيرة، وأن تعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حسبما استطعت.

فيقول المريد: قبلت ذلك.

ثم يدعو الشيخ للمريد، وللمسلمين بأن يقول فى دعائه: اللهم أصلحنا وأصلح بنا، واهدنا واهد بنا، وأرشدنا وأرشد بنا، اللهم أرنا الحق حقاً وألهمنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، اللهم اقطع عنا كل قاطع يقطعنا عنك ولا تقطعنا عنك، ولا تشغلنا بغيرك، ثم يقول: الله على ما نقول وكيل، ثم يقرأ الفاتحة.

هذا أحسن ما قيل فى كيفية العهد منفرداً عن التلقين، فإذا

اجتمع معه تلقين يقول له الشيخ بعد ما مر. اسمع منى الذكر ثلاثاً، وقله بعدى كذلك، ثم يطرق رأسه مستأذنا لرسول الله ﷺ، وأهل السلسلة وقطب الوقت[١] غاضاً بصره بقوله: دستور يا رسول الله، دستور يا أهل السلسلة، دستور يا قطب هذا الأوان، مستمداً ممن ذكر الفتح والقبول وفتق جيب الحقيقة لهذا المريد، ثم يرفع رأسه قائلاً: لا إله إلا الله (ثلاثاً)، بهمة مع الحد المعلوم عند القوم، ويقولها المريد كذلك، ثم يوصيه بتقوى الله تعالى وما يناسب حاله من الأحوال، وما يقتضى رفع دخان رانه من الأعمال.

وصية الشيخ للمريد عند أخذ العهد عليه.

وهذه الوصية تكون مما يراه الشيخ ويفتح به عليه من الكلام إذا كان أهلاً لذلك، بأن كان له إشراف على الحقائق، بحيث صار يعرف الداء وما يناسبه من الدوار بالبصيرة النافذة، وإلا فليتحفه بوصية من كلام العارفين، والأولى أن تكون هى ما أبداه خليفة الشمس الحنفى سيدى (محمد المنير) فى تحفة السالكين، حيث قال بعد كلام يتعلق بالعهد.

---

(١) ينكر أدعياء السلفية وجود الأقطاب، فياليتهم يرجعون إلى رشدهم بعد ما أكدها ابن تيمية وابن كثير والسبكى.

وصية الشيخ بعد ذلك قبل أن يقوم من بيد يديه:

وهى نتيجة العهد.. فيقول: اسمع منى وصيتى إليك، واعمل بها، كما ألزمت نفسك عهد الله وميثاقه أن تتقى الله فى سائر أحوالك وتخلص فى جميع أعمالك، ولا تلتفت لنظر الخلق إليك بل غب عنهم بنظر الله لك، واطلاعه على سرك وعلانيتك، وعليك باتباع الكتاب والسنة فإنها الطريق الموصلة إلى الله تعالى، واعمل متجرداً عن حظوظ نفسك فى الدنيا والآخرة، ولا تعمل بملاحظة الكرامة ولا خوفاً من عقاب الله تعالى، وطمعاً فى ثوابه، بل القصد رضا الله عنك ومحبته إليك، والقيام بحق العبودية، والثواب لا شك حاصل وتحصيل الحاصل عبث. وعليك بالإحسان للخلق بتوقير الكبير، والرحمة للصغير، وعليك بالزهد فى الدنيا، إلا ما ستر العورة وأوى الجثة، وسد الجوعة، فإن زدت على ذلك فإياك والغرور، وعليك بالورع عن كل ما فيه شبهة، وعليك بكف الأذى وإن أوذيت، وعليك بالصبر، فإنه رأس العبادة، وعليك بالرضا عن الله فى كل شئ ورد عليك منه، وعليك بمجالسة من يدلك على الله بقوله وفعله، وعليك بالثقة بالله على كل حال وفى كل حال، والتوكل على الله، والشكر له، وعليك بذكر الموت فإنه أساس الزهد، وإياك والمخاصمة والمجادلة والمماراة وإن كنت محقاً، والبغى وحب الشهرة بالخير والميل إلى المدح، والزم الأدب مع كل مخلوق،

ولا تيأس من رحمة الله وكرمه وفرجه، وإن ضاقت الأمور فإن الله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ (الشرح: ٥، ٦)، ولن يغلب عسر يسرين، ولا تشكو الله إلى أحد من خلقه فإنه المعافى، والمبتلى، والقابض، والباسط، والضار، والنافع، وتكون فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وتنفد ما فى يديك من مكاسب الحرام، وتجتهد فى مكاسب الحلال، وتترك ما يقطعك ويلهيك عن عبادة الله عز وجل، وتلزم قلبك التفكير، وتلزم عينيك السهر، وتجعل الذكر أنيسك، والحزن جليسك، والزهد شعارك، والورع دثارك، والصمت قرينك، واقطع نهارك بالجوع والظمأ، وليلك بالسهر والبكاء والتفكر في ذنوبك السالفة، ومثّل الجنة عن يمينك والنار عن يسارك، والصراط تحت قدميك، والميزان بين عينيك، والرب مطلع عليك يقول لك: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (الإسراء: ١٤)، واستعمل ما هو نافع لك وهو الطاعة، ودع ما هو مفسد لك وهو المعصية، واعلم أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨)، انتهت.

كيفية التلقين منفرداً:

وكيفية التلقين منفرداً عن العهد: أن يجلس الشيخ على ركبته مستقبل القبلة بعد الطهارة والاستغفار ثلاثاً، ثم يطرق رأسه

ويدعو له سراً بالفتح، وهو واضع يديه على ركبتى نفسه وكذلك المريد، وكل منهما مغمض بصره، ويقول له: اسمع منى الذكر ثلاث مرات وأنت مغمض عينيك ثم قله بعدى ثلاثاً وأنا أسمع منك، ثم يستأذن شيخه ويطلب المدد من أهل السلسلة[1]، ويقول: دستور يا رسول الله، دستور يا أهل هذا الشأن، دستور يا أصحاب القدم، ويلقنه الذكر.

سند القوم فى التلقين:

إعلم: أن دليل القوم فى التلقين هو ما رواه الطبرانى، والبزار، وغيرهما؛ أن رسول الله ﷺ لقّن أصحابه كلمة التوحيد جماعة وفرادى، فأما تلقينهم جماعة فقال شداد بن أوس رضي الله عنه: كنا عند النبى ﷺ فقال: (هل فيكم غريب؟)، يعنى من أهل الكتاب، قلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: (ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله)، فرفعنا أيدينا وقلنا: لا إله إلا الله، ثم قال ﷺ: (اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ووعدتنى عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد)، ثم قال ﷺ: (ألا أبشروا، فإن الله قد غفر لكم).

وإنما أمر رسول الله ﷺ بغلق الباب إشارة إلى أن طريق

---

(١) هذا هو المدد الذى ينكره أدعياء السلفية اليوم يقره السبكى رحمه الله وغفر له.

القوم مبنى على السر وصفاء الوقت، وأنه لا ينبغى أن يذكر شئ منه بحضرة من ليس منهم ولا يعتقد فيهم.. أ. هـ.

وأما تلقينه ﷺ لأصحابه فرادى؛ فقد قال علىّ بن أبى طالب ﷺ: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، دلنى على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله تعالى، فقال: (يا علىّ، عليك بمداومة ذكر الله عز وجل سراً وجهراً)، فقال علىّ ﷺ: كل الناس ذاكرون، وإنما أريد أن تخصنى بشئ فقال ﷺ: (مه يا علىّ، أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأراضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لرجحت لا إله إلا الله)، ثم قال: (يا علىّ، لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: الله الله)، ثم قال علىّ ﷺ: كيف أذكر يا رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ: (غمض عينيك واسمع منى لا إله إلا الله ثلاث مرات، ثم قل أنت: لا إله إلا الله ثلاث مرات وأنا أسمع)، ثم رفع رسول الله ﷺ رأسه ومد صوته وهو مغمض عينيه وقال: (لا إله إلا الله) ثلاث مرات، وعلىّ ﷺ يسمع، ثم إن عليًا رفع رأسه ومد صوته وهو مغمض عينيه وقال: (لا إله إلا الله) ثلاث مرات، والنبى ﷺ يسمع.

كذا فى مدارج السالكين للعارف الشعرانى، ونحوه فى تحفة السالكين لسيدى محمد المنير.

وقال فيها: واعلم.. أن التلقين للـذكر أولاً كالبـذرة تغـرس لتنبت فروعها بعد ثبوت أصلها فى قلب الذاكر، فيمتـد بـالورد منها بقدر همته، والذكر نفسه مفتاح الفلاح.

فوائد التلقين:

ومن فوائد التلقين: ارتباط القلوب بعضها ببعض إلى رسـول الله ﷺ، ثم إلى الله عز وجل، وأقل ما يحصل للمريد الصـادق إذا دخل سلسلة القوم بالتلقين أن يكون إذا حـرك حلقـة نفسـه تجاوبه أرواح الأولياء من شيخه إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الله عز وجل، فمن لم يدخل فى طريقهم بـالتلقين، فهـو غيـر معدود منهم، وإذا تحرك لا يجبه أحد.. أ. هـ.

ثم اعلم.. أنه ينبغى للأستاذ أن يذكر للمريد عند التلقين نسبه لئلا يجهل المريد آباءه، إذا كان المريد لا يعرف سند الطريـق وسلسلة القوم، أو كان هناك من لا يعرف، لأن من لا نسب لـه فهو لقيط فى الطريق، وربما انتسب إلى غير أبيه.

وقال سيدى عمر بن الفارض رحمه الله: نسب فـى شـرع الهوى بيننا أقرب من نسب أبوىّ، وذلك لأن الروح ألصق بـك من حقيقتك، فأبو الروح يليك وأبو الجسم بعده، فكان بذلك أحـق بأن تنتسب إليه دون أبى الجسم، وقد درج السلف الصالح كلهـم على تعليم المريد من آداب آبائهم ومعرفة أنسـابهم، وأجمعـوا

كلهم على أن من لم يصح له نسب القوم، فهو لقيط لا أب له فى الطريق.

ألفاظ الصوفية ومصطلحاتهم:

ويقول السبكى فى تفسير ألفاظ تداولت بين القوم ص٢٣٠:

إعلم.. أنه لابد لكل طائفة من أمر يختصون به عمن عداهم، ويقضون به أوطارهم فى حال نجواهم، ومن الجلى أن أبهى الطوائف الإنسانية بعد المراتب العلية النبوية طائفة الأكابر الصوفية، ذوى المعارف والأسرار الإلهية، فلا جرم أن استعملوا فيما بينهم ألفاظاً سنية، والإفادة بعضهم بعضاً غوبص المخدرات الأوحدية، ورموز كنوز اللطائف اللدنية، واقتناص أوابد الألباب الذكية، فى ميدان المحاورات الغيبية، والحضرات النافقات القدسية، والمهامه الآمنات الأحدية، والقاصيات الدانيات العبقرية، والواضحات المشكلات البرهونية، والمفقرات المسعدات الجبروتية، والمنيرات المظلمات الملكوتية، والمفردات المثناة الجماعات العدمية الوجودية، الواصلات القاطعات الأنسية الوحشية، بحضرة من لبس من فرسان ميدان الخيام الأحمدية، الساترات الكاشفات المعطشة الغيثية، فيشربون بكؤوس المواهب الكشفية، وهو فى عمائه لا يُدرى أين المطية، فلذا نتعرض فى هذا الباب لحل بعض ظاهر كلمات من هاتيك

المسالك البهية، وأخذ الشيخ السبكى يشرح مصطلحات الصوفية التى ينكرها اليوم أدعياء السلفية.

أدب المريد مع الشيخ:

ويقول الشيخ السبكى فى كتابه (العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق)(١):

وأما آدابك مع شيخك فكثيرة أيضاً.

منها: تعظيمه ظاهراً وباطناً، وهذا من أهم الواجبات عليك وتبلغ من الكمال بقدر تعظيمك له، ومن تعظيمه أن لا تجلس على فراشه الخاص ونحو ذلك.

ومنها: أن لا تكتم عنه شيئاً مما خطر لك من محمود ومذموم، ولا تذكر له من الخواطر إلا ما دام، وتكرر، فإن إعلامه بجميع الخواطر يستغرق الزمن كله لكثرتها، ثم إذا ذكرت المذموم له فليكن سراً.

ومنها: أن تعمل على أوامره لك مع التسليم له ظاهراً وباطناً، فلو اعترضت عليه ولو بقلبك لا تفلح، قال الأشياخ: ما عدم المريد الفلاح إلا من عدم امتثال أمر شيخه، أى: الموافق

---

(١) صدر فى عدد خاص مع مجلة المسلم- سلسلة منشورات العشيرة المحمدية، ط٤- ١٩٨٤م، ص ٢٥- ٢٩.

للشريعة المطهرة كما هو الموضوع كله.

ومنها: أن لا تجلس بحضرته إلا كجلوسك للصلاة إلا لضرورة، ولتحذر من الإكثار من مجالسته، فإن المريد ربما ذهبت حرمة شيخه من قلبه بكثرة مجالسته له، فيهون عليه بذلك قدره فيحرم بركته.

ومنها: أن لا تطلب منه جواباً عن رؤيا رأيتها أو حادثة حدثت لك، بل تذكر حاجتك وتسكت، فإن أجابك كان، وإلا أعرضت بقلبك عن طلب الجواب لئلا يصير شيخك محكوماً عليك منه بلزوم رد الجواب.

ومنها: أن لا تطيع في شيخك قول قائل، ولا تصاحب له عدواً، ولا تعادى له صديقاً، ولا تجالس من ليس محباً له.

قالوا: يجب على المريد أن يحب كل من قرّبه شيخه، ويبعد كل من أبعده جملة واحدة، ومن أدل دليل على عدم صدق المريد في محبة شيخه أن يكره أحداً من أصحابه أو ينقصه، ومن هنا يترقى المريد إلى محبة جميع الخلق ومحبة نسبتهم إلى الكمال لأجل من هم عبيد له سبحانه وتعالى، ولكن إن أمره شيخه أن يجانب أحداً من أصدقائه أو غيره وجب اجتنابه، ولا يغتر بإظهار شيخه محبة ذلك الصديق، لأن من شأن الشيخ الإقبال على كل الناس حتى لا يصير له عدو قط، إلا من

المجرمين لوسع ما هو عليه من الأخلاق المحمدية.

ومنها: أن تحذر من العجلة إلى فعل ما أمرك به شيخك من غير معرفتك بشروط ذلك الأمر، بل تأن وتعلم طريق الأدب والسياسة فى فعله ليقع منك على بصيرة.

ومنها: أن لا تبيت عنده إلا إذا دعاك، ولا تبت معه قط، حيث يبيت سفراً ولا حضراً إلا لعذر، قالوا: ومتى غاب المريد عن شيخه ساعة واحدة، ولم يشتق إلى رؤيته، فهو كاذب فى إرادته لا يصلح للطريق أبداً.

ومنها: أن لا تعمل عملاً إلا بإذنه، وأن تسلم له فى جميع الأمور، بأن تكون بين يديه كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا يتحرك منه شئ إلا إذا حركه..

ومنها: أن لا تتشوق لمعرفة مقدار نومه أو أكله، أو كم يتوضأ فى اليوم والليلة مرة، أو هل يأتى النساء كثيراً أو قليلاً، فهذا ونحوه معدود من عقوق المريدين، والعاق لا يرفع له إلى السماء عمل، إذ ربما كان اطلاع المريد على تلك الأحوال منقصاً لحال شيخه فى قلبه لجهله بأحوال الكُمّل، فيهلك ويقع فى الخيانة لشيخه، ويحل عقده الذى عقده معه، ومحل ذلك المنع ما لم يكن هناك داع شرعى يدعو إلى الاطلاع على أحوال الشيخ فى ذلك.

قالوا: وليعلم المريد أن كل ذرة من أعمال شيخه لا يقاوم بها عبادته هو طول السنة لسلامتها من الموانع، فنومه أشرف من عبادة المريد، وقد أرسل ذو النون المصرى يقول لأبى يزيد البسطامى: إلى متى الغفلة والراحة وقد سارت القافلة؟.

فأرسل أبو يزيد يقول له: ليس الرجل من يسير مع القافلة، وإنما الرجل من ينام إلى الصباح، ويصبح أمامها.

فقال ذو النون: هذه درجة لم تبلغها أحوالنا.

ومنها: أن لا تتزوج امرأة رأيته مائلاً إلى التزوج بها، ولا امرأة طلقها أو مات عنها.

ومنها: أن تجتهد فى إكرام كل من يلوذ به ولا سيما أولاده.

ومنها: أن لا تديم النظر إلى وجهه، فمن أدمن النظر إلى وجه شيخه فقد خلع ربقة الحياء من عنقه، وربما حرم بركته.

ومنها: أن تعظم ما أعطاه لك من ثوب ونحوه، ولا تبيعه لأحد ولو أعطاك ما أعطاك، إذ ربما يكون طوى لك فيه سراً، وربما جمع لك فيه جملة من أخلاق الرجال كما طوى رسول الله ﷺ لأبى هريرة ثوباً، فما نسى بعد ذلك شيئاً قط، والأشياخ ليس لهم فعل عبثاً، لأن مقامهم يجل عن ذلك.

ومنها: أن لا تتغير عليه إذا نقصك بين إخوانك أو فعل بك

أى فعل، لأنه لا يفعل معك ذلك إلا لمصلحة يقصر عن إدراكها عقلك، بل يجب عليك أن تشكره على ذلك زيادة على ما كنت عليه من قبل، لأنه ما فعل معك ذلك إلا اعتناء بك، بل لا يخاف المريد إلا من مباسطة شيخه له، فمن تغير من زجر شيخه لا يفلح أبداً.

ومنها: أن لا تسافر، ولا تتزوج، ولا تفعل نحو ذلك إلا بإذنه.

ومنها: أن تمتثل أمره إذا منعك من فعل مباح، لأن قصد الشيخ للمريد دائماً الترقى، وفعل المباح لا ترقى فيه لأنه لا ثواب فيه، فالمريد الذى غالب أوقاته فى المباح كاذب خائن، وقالوا: إذا احتج المريد على الشيخ بأقاويل العلماء فى جواز فعل المباح لم يفلح أبداً، وإذا تركه الشيخ يحتج عليه ولم يزجره عن ذلك فقد مكر به وأخرجه عن صحبته.

ومنها: أن لا تصافحه ويده مشغولة بقلم أو نحوه.

ومنها: أن لا تجلس فى المكان المعد لجلوسه.. وأن لا تكثر الكلام بحضرته ولو باسطك، ولا ترفع صوتك بحضرته، ولا تقرع باب المكان الذى هو فيه بشدة، ولا تلح عليه فى أمر.

ومنها: أن تصبر على جفوته وإعراضه عنك، ولا تقل: لم فعل بفلان كذا، ولم يفعل بى كذا، وإلا خبت.

ومنها: غير ذلك ويذكر القليل يتنبه العاقل للكثير، وهذه الآداب إنما يخاطب بها المريد الصادق المجد الحاذق لا كل من تلقن الذكر.

وأما آدابك مع أخوانك:

فمنها: أن تحب لهم ما تحب لنفسك أو تقدمهم على نفسك، وأن تكون خادماً لهم مع اعتقادك أن الفضل لهم لا لك، وأن لا ترى لك حقاً على أحد منهم، بل ترى أنك دائماً محقوق لهم فتطلب منهم المسامحة والرضا، وأن تراهم خيراً منك فى كل شئ حتى أنك ترى نومهم خيراً من عبادتك، وأن تكون معيناً لهم على فعل ما فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة محافظاً على شرفهم فى الحضرة والغيبة، تعادى من يعاديهم وتحب من يحبهم، جاعلاً رأس مالك فى مرضاتهم، تقدم مصالحهم على مصالح نفسك، وهكذا من الآداب التى لا تخفى على عاقل.

وأكثر الآداب المتقدمة يطلب منك فى حق العامة، وأصل جميع الآداب هو العمل بالسنة، فمن نسج عمله على منوالها، أحرز كل الفضائل والفواضل والبها، ومن عمل بالبدع فلا شرف له ولا أدب، إذ هو فى دائم المقت والخزى ومهول العطب.

فالحذر الحذر أيها العقلاء من ارتكاب البدع، فإن فعلها أعظم

داء، وتمسكوا في حركاتكم وسكناتكم بسنة خاتم الأنبياء، فبذا يتم لكم كل الفلاح ونهاية الارتقاء أ.هـ.

ويقول السبكي ص٣٧: ونتيجة العهد هي: الجد في السلوك إلى ملك الملوك، مع الأخذ بالأحوط من الأحكام بمعنى أن أهله يتباعدون عن العمل بالمسألة التي فيها خلاف بالجواز والكراهة، ويعملون بالمتفق عليه الوارد عن رسول الله ﷺ بصريح السنة، لأن وجود القول بالكراهة وبالأولى الحرمة قاض على ذوي الألباب بالبعد عنه، بل يتباعدون عن العمل بخلاف الأولى لقول النبي ﷺ: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)(١).

ولذا قالوا: الصوفية قعدوا على الدعائم الأصلية ووقف غيرهم على الرسوم، ومن هنا فازوا فوزاً عظيماً، وبلغوا من الكمالات ما لم يصل إليه غيرهم، ولكن لا سبيل لك أيها الإنسان إلى ذلك إلا بمجاهدة النفس ليلاً ونهاراً بهمة قوية، مع الإخلاص التام لرب البرية، حتى تتمزق حجب النفس الظلمانية، وتتبدل بالأنوار والمعارف العلية، وذلك أن النفس وإن كانت واحدة، ولكن تختلف باختلاف صفاتها أ.هـ.

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة والنسائي والترمذي، والسيوطي في جامع الأحاديث برقم ١١٤٢٩.

الفصل السادس

حسن البنا الحصافى

مؤسس الإخوان المسلمين

فى كتابه مذكرات الدعوة والداعية.. طبعة دار الاعتصام .. القاهرة سنة ١٩٨٦م

حلقة الذكر (١)

وفى المسجد الصغير رأيت (الإخوان الحصافية) يذكرون الله تعالى عقب صلاة العشاء من كل ليلة، وكنت مواظباً على حضور درس الشيخ زهران رحمه الله بين المغرب والعشاء.. فاجتذبتنى حلقة الذكر بأصواتها المنسقة ونشيدها الجميل وروحانيتها الفياضة، وسماحة هؤلاء الذاكرين من شيوخ فضلاء وشباب صالحين، وتواضعهم لهؤلاء الصبية الصغار الذين اقتحموا عليهم مجلسهم ليشاركوهم ذكر الله تبارك وتعالى، فواظبت عليها هى الأخرى. وتوطدت الصلات بينى وبين شباب هؤلاء الإخوان الحصافية ومن بينهم الثلاثة المقدمون: الشيخ شلبى الرجال، والشيخ محمد أبو شوشة، والشيخ سيد عثمان، والشبان الصالحون الذين كانوا أقرب الذاكرين إلينا فى السن:

---

١) الدعوة والداعية، ص٢٠، للشيخ حسن البنا.

محمد أفندى الدمياطى، وصاوى أفندى الصاوى، وعبد المتعال أفندى سنكل، وأضرابهم.

وفى هذه الحلبة المباركة التقيت لأول مرة بالأستاذ أحمد السكرى- وكيل الإخوان المسلمين- فكان لهذا اللقاء أثره البالغ فى حياة كل منا. ومنذ ذلك الحين أخذ اسم الشيخ الحصافى يتردد على الأذن فيكون له أجمل وقع فى أعماق القلب، وأخذ الشوق والحنين إلى رؤية الشيخ والجلوس إليه والأخذ عنه يتجدد حيناً بعد حين، وأخذت أواظب على الوظيفة الزروقية صباحا ومساء، وزادنى بها إعجابا أن الوالد قد وضع عليها تعليقا لطيفا جاء فيه بأدلة صيغها جميعا تقريبا من الأحاديث الصحيحة، وسمى هذه الرسالة (تنوير الأفئدة الزكية بأدلة أذكار الزروقية). ولم تكن هذه الوظيفة أكثر من آيات من الكتاب الكريم، وأحاديث من أدعية الصباح والمساء التى وردت فى كتب السنة تقريبا، ليس فيها شئ من الألفاظ الأعجمية، أو التراكيب الفلسفية، أو العبارات التى هى إلى الشطحات أقرب منها إلى الدعوات.

الحضرة والبيعة(١):

وظللت معلق القلب بالشيخ حسنين الحصافى- رحمه الله- حتى التحقت بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور مدفن الشيخ

---

١) الدعوة والداعية، ص٢٥.

وضريحه وقواعد مسجده الذى لم يكن تم حينذاك، وتم بعد ذلك، فكنت مواظبا على الحضرة فى مسجد التوبة فـــى كـــل ليلـــة، وسألت عن مقدم الإخوان فعرفت أنه الرجل الصالح التقى الشيخ بسيونى العبد التاجر، فرجوته أن يأذن لى بأخـــذ العهـــد عليـــه ففعل، ووعدنى بأنه سيقدمنى للسيد عبد الوهاب عند حضـــوره، ولم أكن إلى هذا الوقت قد بايعت أحدا فى الطريق بيعة رسمية، وإنما كنت محباً وفق اصطلاحهم.

وحضر السيد عبد الوهاب- نفـــع الله بـــه- إلـــى دمنهـــور وأخطرنى الإخوان بذلك فكنت شديد الفرح بهذا النبـــأ، وذهبـــت إلى الوالد الشيخ بسيونى ورجوته أن يقدمنى للشيخ ففعل، وكـــان ذلك عقب صلاة العصر مـــن يـــوم ٤ رمضـــان ســـنة ١٣٤١ الهجرية، وإذا لم تخنى الذاكرة، فقد كان يوافـــق الأحـــد حيـــث تلقيت الحصافية الشاذلية عنه، وأذننى بأورادها ووظائفها.

رأى فى التصوف[١]:

ولعل من المفيد أن أسجل فى هذه المذكرات بعض خواطر- حول التصوف والطرق فى تاريخ الدعوة الإســـلامية- تتنـــاول نشأة التصوف وأثره، وما صار إليه، وكيف تكون هذه الطـــرق نافعة للمجتمع الإسلامى. وسوف لا أحاول الاستقصاء العلمـــى أو التعمق فى المعانى الاصطلاحية، فإنما هى مـــذكرات تكتـــب

---

١) الدعوة والداعية، ص٢٧.

عفو الخاطر، فتسجل ما يتردد فى الذهن وما تتحرك به المشاعر، فإن تكن صوابا فمن الله ولله الحمد، وإن تكن غير ذلك فالخير أردت ولله الأمر من قبل ومن بعد:

حين اتسع عمران الدولة الإسلامية صدر القرن الأول، وكثرت فتوحها وأقبلت الدنيا على المسلمين من كل مكان، وجبيت إليهم ثمرات كل شئ، وكان خليفتهم بعد ذلك يقول للسحابة فى كبد السماء: شرقى أو غربى فحيثما وقع قطرك جاءنى خراجه، وكان طبيعيا أن يقبلوا على هذه الدنيا يتمتعون بنعيمها ويتذوقون حلاوتها وخيراتها فى اقتصاد أحيانا وفى إسراف أحيانا أخرى، وكان طبيعيا أمام هذا التحول الاجتماعى، من تقشف عصر النبوة الزاهر إلى لين الحياة ونضارتها فيما بعد ذلك، أن يقوم من الصالحين الأتقياء العلماء الفضلاء دعاة مؤثرون يزهدون الناس فى متاع هذه الحياة الزائل، ويذكرونهم بما قد ينسونه من متاع الآخرة الباقى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤). ومن أول هؤلاء الذين عرفت عنهم هذه الدعوة- الإمام الواعظ الجليل- الحسن البصرى، وتبعه على ذلك كثير من أضرابه الدعاة الصالحين، فكانت طائفة فى الناس معروفة بهذه الدعوة إلى ذكر الله واليوم الآخر، والزهادة وتربية النفوس على طاعة الله وتقواه.

وطرأ على هذه الحقائق ما طرأ على غيرها من حقائق المعارف الإسلامية، فأخذت صورة العلم الذى ينظم سلوك

الإنسان ويرسم له طريقا من الحياة خاصا: مراحله الذكر والعبادة ومعرفة الله، ونهايته الوصول إلى الجنة ومرضاة الله.

وهذا القسم من علوم التصوف، واسمه (علوم التربية والسلوك)، لا شك أنه من لب الإسلام وصميمه، ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها، والطب لها والرقى بها، لم يبلغ إليه غيرهم من المربين، ولا شك أنهم حملوا الناس بهذا الأسلوب على خطة عملية من حيث أداء فرائض الله واجتناب نواهيه، وصدق التوجه إليه، وإن كان ذلك لم يخل من المبالغة فى كثير من الأحيان تأثرا بروح العصور التى عاشت فيها هذه الدعوات: كالمبالغة فى الصمت والجوع والسهر والعزلة.. ولذلك كله أصل فى الدين يرد إليه، فالصمت أصله الإعراض عن اللغو، والجوع أصله التطوع بالصوم، والسهر أصله قيام الليل، والعزلة أصلها كف الأذى عن النفس ووجوب العناية بها.. ولو وقف التطبيق العملى عند هذه الحدود التى رسمها الشارع لكان فى ذلك كل الخير.

ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علم السلوك والتربية، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيرا لها وللناس، ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأى والعقيدة ليدخل من

هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف، والرغبة فى الحصول على هذه النتائج الروحية الباهرة، وأصبح كل ما يكتب أو يقال فى هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين فى دين الله والحريصين على صفائه ونقائه.

وجاء بعد ذلك دور التشكل العملى للفكرة فنشأت فرق الصوفية وطوائفهم، كل على حسب أسلوبه فى التربية. وتدخلت السياسة بعد ذلك لتتخذ من هذه التشكيلات تكأة عند اللزوم، ونظمت الطوائف أحياناً على هيئة النظم العسكرية، وأخرى على هيئة الجمعيات الخاصة.. حتى انتهت إلى ما انتهت إليه اليوم من هذه الصورة الأثرية التى جمعت بقية ألوان هذا التاريخ الطويل، والتى يمثلها الآن فى مصر مشيخة الطرق الصوفية ورجالها وأتباعها.

ولا شك أن التصوف والطرق كانت من أكبر العوامل فى نشر الإسلام فى كثير من البلدان، وإيصاله إلى جهات نائية ما كان ليصل إليها إلا على يد هؤلاء الدعاة، كما حدث ويحدث فى بلدان أفريقيا وصحاريها ووسطها، وفى كثير من جهات آسيا كذلك.

ولا شك أن الأخذ بقواعد التصوف فى ناحية التربية والسلوك له الأثر القوى فى النفوس والقلوب، ولكلام الصوفية فى هذا الباب صولة ليست لكلام غيرهم من الناس.. ولكن هذا

الخلط أفسد كثيراً من هذه الفوائد وقضى عليها.

ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير فى إصلاح هذه الطوائف من الناس، وإصلاحهم سهل ميسور، وعندهم الاستعداد الكامل له، ولعلهم أقرب الناس إليه لو وجهوا نحوه توجيهاً صحيحاً، وذلك لا يستلزم أكثر من أن يتفرغ نفر من العلماء الصالحين العاملين، والوعاظ الصادقين المخلصين لدراسة هذه المجتمعات، والإفادة من هذه الثروة العلمية، وتخليصها مما علق بها، وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة.

وأذكر أن السيد توفيق البكرى رحمه الله فكر فى ذلك، وقد عمل دراسات علمية عملية لشيوخ الطرق وألّف لهم فعلاً كتاباً فى هذا الباب، ولكن المشروع لم يتم ولم يهتم به من بعده الشيوخ، وأذكر من ذلك أن الشيخ عبد الله عفيفى رحمه الله كان معنياً بهذه الناحية وكان يطيل الحديث فيها مع شيوخ الأزهر وعلماء الدين، ولكنه كان مجرد تفكير نظرى لا أثر للتوجه إلى العمل فيه، ولو أراد الله والتقت قوة الأزهر العلمية بقوة الطرق الروحية بقوة الجماعات الإسلامية العملية، لكانت أمة لا نظير لها، تُوجه ولا تتوجه، وتقود ولا تنقاد، وتؤثر فى غيرها ولا يؤثر شئ فيها، وترشد هذا المجتمع الضال (تأمل) إلى سواء السبيل.

الزيارات والصلات[1]:

وكنا فى كثير من أيام الجمع التى يتصادف أن نقضيها فـــى دمنهور، نقترح رحلة لزيارة أحد الأولياء القريبين من دمنهـــور، فكنا أحياناً نزور دسوق فنمشى على أقدامنا بعد صلاة الصـــبح مباشرة، حيث نصل حوالى الثامنة صباحاً، فنقطع المسافة فـــى ثلاث ساعات وهى نحو عشرين كيلو متراً، ونـــزور ونصـــلى الجمعة، ونستريح بعد الغداء، ونصلى العصر ونعـــود أدراجنـــا إلى دمنهور حيث نصلها بعد المغرب تقريباً.

وكنا أحياناً نزور عزبة النوام حيث دفن فى مقبرتها الشـــيخ سيد سنجر من خواص رجال الطريقة الحصـــافية والمعـــروفين بصلاحهم وتقواهم، ونقضى هناك يوماً كاملاً ثم نعود.

ويعرف الشيخ البنا الصوفى بقوله: الصوفى متخفف يجـــب عليه أن يقطع علائقه بكل ما سوى الله، وأن يجاهد فـــى هـــذه السبيل ما أمكنه من ذلك.

تدارس علوم الصوفية[2]:

يضاف إلى ذلك أن ليلة الجمعة فى منـــزل الشـــيخ شـــلبى الرجال بعد الحضرة يتدارس فيها كتب التصوف من (الإحيـــاء)

---

1) الدعوة والداعية، ص: ٣١، ٣٢.

2) الدعوة والداعية، ص٣٧.

وسماع أحوال الأولياء والياقوت والجواهر وغيرها.. ونذكر الله إلى الصباح كانت من أقدس مناهج حياتنا، وكنت قد تقدمت في صناعة الساعات وفي صناعة التجليد أيضاً، أقضي فترة النهار في الدكان صانعاً وفترة الليل مع الإخوان الحصافية ذاكراً، ولهذه المآرب جميعاً لم أكن أستطيع أن أتخلف عن الحضور يوم الخميس إلا لضرورة قاهرة، وكنت أنزل من قطار الدلتا إلى الدكان مباشرة، فأزاول عملي في الساعات قبيل المغرب حيث أذهب إلى المنزل لأفطر إذ كان من عاداتنا صوم الخميس والاثنين، ثم إلى المسجد الصغير بعد ذلك للدرس والحضرة، ثم إلى منزل الشيخ شلبي الرجال أو منزل أحمد أفندي السكري للمدارسة والذكر، ثم إلى المسجد لصلاة الفجر، وبعد ذلك استراحة يعقبها الذهاب إلى الدكان وصلاة الجمعة والغداء، والدكان إلى المغرب فالمسجد فالمنزل وفي الصباح إلى المدرسة، وهكذا دواليك في ترتيب لا أذكر أنه تخلف أسبوعاً إلا لضرورة طارئة.

التهيؤ لدخول دار العلوم[1]:

كانت أيام مدرسة المعلمين- في سنواتها الثلاث- أيام استغراق في التصوف والتعبد..

---

١) الدعوة والداعية، ص٣٨.

حياة عام[1]:

كنت سعيداً بالحياة فى القاهرة هذا العام فقد ظهر ترتيبى متقدماً فى الامتحان، ومنحتنى المدرسة المكافأة المادية المقررة وهى جنيه فى الشهر خصصته لشراء الكتب غير المدرسية، ولا زال كثير من كتب مكتبتى الآن من أثر هذا الجنيه الذى لازمنى طوال حياتى المدرسية.. كما كنت أجد متعة كبرى فى الحضرة عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع فى منزل الشيخ الحصافى.. ثم فى كثير من ليالى الأسبوع فى منزل الخليفة الأول للشيخ الحصافى على أفندى غالب، أو سيدنا الأفندى كما نسميه دائماً، قواه الله، وجزاه عنا خيراً، وكنت أكاتب الأخ أحمد أفندى السكرى ويكاتبنى يومياً تقريباً، وأزور البلد فى فترة الأجازات فأقضيها معه ومع الإخوان الحصافية بالمحمودية وفى ذلك بلاغ.

وهكذا كانت حياتى العلمية، والعملية والروحية مستقرة لا يعكرها شئ والحمد لله.

ويقول (ص: ٥٣): وبالرغم من اشتغالنا الكامل بالعبادة والذكر واستغراقنا فى الطريق بأورادها ووظائفها وأحفالها إلا أننا كنا دائماً نتعشق العلم والقراءة، وننفر من كل ما يتنافى مع

---

١) الدعوة والداعية، ص٥١.

ظاهر الدين وأحكامه، وننكر على كثير من المنتسبين للطرق خروجهم على نعاليم الإسلام، فكنا مريدين أحراراً فى تفكيرنا، وإن كنا مخلصين كل الإخلاص فى تقديرنا للعبادة والذكر وآداب السلوك.

الاحتفال بالمناسبات الدينية

أولاً : المولد النبوى[١]

وأذكر أنه كان من عادتنا أن نخرج فى ذكرى مولد الرسول ﷺ بالموكب بعد الحضرة، كل ليلة من أول ربيع الأول إلى الثانى عشر منه من منزل أحد الإخوان، وتصادف أننا فى أحد الليالى، كان الدور على أخينا الشيخ شلبى الرجال، فذهبنا على العادة بعد العشاء فوجدنا البيت منيراً نظيفاً مجهزاً ووزع الشربات والقهوة والقرفة على مجرى العادة، وخرجنا بالموكب ونحن ننشد القصائد المعتادة فى سرور كامل وفرح تام، وبعد العودة جلسنا مع الشيخ شلبى قليلاً، وأردنا الانصراف فإذا هو يقول فى ابتسامة رقيقة لطيفة: إن شاء الله غداً تزورونني مبكرين لندفن روحية.. وروحية هذه وحيدته وقد رزقها بعد إحدى عشرة سنة من زواجه تقريباً، وكان بها شغفاً مولعاً ما كان يفارقها حتى فى عمله، وقد شبت وترعرعت، وأسماها

---

١) الدعوة والداعية، ص٥٤.

روحية لأنها كانت تحتل من نفسه منزلة الروح، فاستغربنا وسألناه: ومتى توفيت؟.. فقال: اليوم قبيل المغرب.. فقلنا: ولماذا لم تخبرنا فنخرج من منزل آخر بالموكب؟.. فقال: وما الذى حدث، لقد خفف عنا الحزن، وانقلب المأتم فرحاً فهل تريدون نعمة من الله أكبر من هذه النعمة؟.. وانقلب الحديث إلى درس تصوف يلقيه الشيخ شلبى ويعلل وفاة كريمته بغيرة الله على قلبه، فإن الله يغار على قلوب عباده الصالحين أن تتعلق بغيره، أو تتصرف إلى سواه.

ثانياً: الإسراء والمعراج(١)

وفى ليلة من ليالى الإسراء والمعراج كنت ألقى محاضرة بهذه المناسبة وقلت: إن الإسراء والمعراج تكريم لرسول الله ﷺ، وإننا إذا تصورنا أن للروح سلطاناً قوياً على البدن بحيث يمكن أن يقال: إن روح رسول الله ﷺ فى هذه الليلة المباركة كانت من القوة والإمداد والاتساع بحيث تسلطت على بدنه المبارك فعطلت نواميس المادة وجعلته فى غنى عن الطعام والشراب والهواء والنفس والتأثر بالاحتكاك والمسافات.. إلخ، فإن ذلك لا يكون مستبعداً ويقرب معجزة الإسراء إلى أفهام الذين يستغربونها، وقلت: إن شوقى رحمه الله أشار إلى هذا فقال:

---

١) الدعوة والداعية، ص١٢٧.

يتساءلون وأنت أكرم مرسل

بالروح أم بالهيكل الإسراء؟

بهما سريت مطهرين كلاهما

روح وروحـــانية وضـــياء

وانتهى الحفل والناس كلهم سرور بما سمعوا.

ثالثاً: ذكرى الهجرة(١)

وفى ذكرى الهجرة ســنة ١٣٤٨ أقامــت جمعيــة الشــبان المسلمين بالقاهرة حفلاً جامعاً كان مــن خطبائـــه كثيــر مــن الفضلاء، وقد ألقيت كلمة فى هذا الحفل تحت عنوان: (ذكــرى يوم الهجرة والدعوة الإسلامية وأثرها)، ونشــرت فــى رســالة المنتقى من محاضرات جمعية الشبان المسلمين.

وكان من الحاضرين فى هذا الجمع الســيد محمــد زبــارة الحسن اليمنى أمير قصر السعيد فى صنعاء حينذاك.. فلقينى بعد المحاضرة وتحدثنا طويلاً عن مصر وعن اليمن وعــن انتشــار الإلحادية والإباحية المستشرى فى ذلك الوقت ووجوب الوقــوف أمامه بكل القوى، ومن ذلك العهد توطدت بيننا صــداقة قويــة، وعرض علىَّ سيادته أن أعمل مدرساً باليمن ودارت مخاطبــات بهذا الخصوص بينه وبين جلالة الإمام وبينه وبين سيف الإسلام

---

١) الدعوة والداعية، ص١٣١.

محمد- رحمه الله- الذى كان محباً للإصلاح، راغبا فيــه أشـد الرغبة، حريصاً على أن تسير اليمن إليــه بخطــوات فســيحة، وجرت مكاتبات بيني وبين سيف الإسلام محمد رحمه الله بهــذا الخصوص وتعارفنا على البعد، ولكنا لم نســتطع إنفــاذ فكــرة الذهاب إلى اليمن للعقبات الرسيمة المتقدمة، إذ كانــت السياســة المضروبة على مصر إذ ذاك ألا تتصل بالبلاد العربية بحال.

وزار الأستاذ سيد محمد زبارة الإسماعيلية، ومكث معنا بهــا ثلاثة أيام وشاهد منشآت الإخوان ومؤسســاتهم: معهــد حــراء الإسلامي، ومدرسة أمهات المؤمنين، وفرقة الــرحلات، ورأى الإخوان فى دروسهم ومحاضراتهم، ولمس ما تفيض به نفوسهم من حب وإخاء وغيرة على الإسلام والمسلمين، فأعجــب بــذلك كله أيما إعجاب، واستمرت هذه الصلة إلى الآن، ومــا كــان لله دام واتصل.

طريق التصوف[1]:

ومن الموضوعات التى أتحفنا بهــا بمناســبة آخــر العــام الدراسي، وكان بالنسبة لي ولفرقتــى، العــام النهــائي، ســنة ١٩٢٧م، هذا الموضوع: اشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبين الوسائل التى تعدها لتحقيقها.

وقد أجبت عنه بهذا الموضوع: أعتقد أن خير النفوس تلــك

---

١) الدعوة والداعية، ص٦٥.

النفس الطيبة التى ترى سعادتها فى إسعاد النـــاس وإرشـــادهم، وتستمد سرورها من إدخال الســـرور علـــيهم، وذود المكـــروه عنهم، وتعد التضحية فى سبيل الإصلاح العام ربحـــاً وغنيمـــة، والجهاد فى الحق والهداية- على توعر طريقهما، وما فيه مـــن مصاعب ومتاعب- راحة ولذة، وتنفذ إلى أعماق القلوب فتشعر بأدوائها، وتتغلغل فى مظاهر المجتمع، فتتعرف ما يعكر علـــى الناس صفاء عيشهم ومسرة حياتهم، وما يزيد فى هذا الصـــفاء، ويضاعف تلك المسرة، لا يحدوها إلى ذلك إلا شعور بالرحمـــة لبنى الإنسان، وعطف عليهم، ورغبـــة شـــريفة فـــى خيـــرهم، فتحاول أن تبرئ هذه القلوب المريضة، وتشرح تلـــك الصـــدور الحرجة، وتسر هاته النفوس المنقبضة، لا تحسب ساعة أســـعد من تلك التى تنقذ فيها مخلوقاً من هوة الشقاء الأبدى أو المادى، وترشده إلى طريق الاستقامة والسعادة.

وأعتقد أن العمل الذى لا يعدو نفعه صـــاحبه، ولا تتجـــاوز فائدته عامله، قاصر ضئيل، وخير الأعمال وأجلها ذلـــك الـــذى يتمتع بنتائجه العامل وغيره، من أسرته وأمتـــه وبنـــى جنســـه، وبقدر شمول هذا النفع يكون جلاله وخطره، وعلى هذه العقيـــدة سلكت سبيل المعلمين، لأنى أراهم نوراً ساطعاً يستنير به الجمع الكثير ويجرى فى هذا الجمع الغفير، وإن كان كنـــور الشـــمعة التى تضئ للناس باحتراقها.

وأعتقد أن أجلَّ غاية يجب أن يرمى الإنسان إليها، وأعظـــم

ربح يربحه أن يحوز رضا الله عنه، فيدخله حظيرة قدسه، ويخلع عليه جلابيب أنسه، ويزحزحه عن جحيم عذابه، وعذاب غضبه.. والذى يقصد إلى هذه الغاية يعترضه مفرق طريقين، لكل خواصه ومميزاته، يسلك أيهما شاء:

أولهما: طريق التصوف الصادق، الذى يتلخص فى الإخلاص والعمل، وصرف القلوب عن الاشتغال بالخلق خيرهم وشرهم، وهو أقرب وأسلم.

ثانيهما: طريق التعليم والإرشاد، الذى يجامع الأول فى الإخلاص والعمل، ويفارقه فى الاختلاط بالناس، ودرس أحوالهم وغشيان مجامعهم ووصف العلاج الناجح لعللهم. وهذا أشرف عند الله وأعظم، ندب إليه القرآن العظيم، ونادى بفضله الرسول الكريم ﷺ، وقد رجح الثانى(١)- بعد أن نهجت الأول- لتعدد نفعه، وعظيم فضله، ولأنه أوجب الطريقين على المتعلم وأجملهما بمن فقه شيئاً ﴿لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ (التوبة:١٢٢).

رجال الطرق الصوفية(٢):

وأما رجال الطرق الصوفية فقد كانوا كثرة كثيرة فى هذا

---

(١) نلاحظ هنا الانسلاخ الواضح للبنا من الصوفية تحت جنح منهج التعليم والإرشاد، وكأن التصوف يخلو منهما!!.

(٢) الدعوة والداعية، ص٨٠.

البلد الطيبة- الإسماعيلية- قلوب أهله، وكان يتردد عليهم الكثير من الشيوخ، ولا أنسى مجالس الشيخ حسن عبد الله المسلمى والشيخ عبود الشاذلى، والشيخ عبد الوهاب الدندراوى وغيرهم، وفى هذه الفترة زار الإسماعيلية الشيخ عبد الرحمن سعد وهو من خلفاء الشيخ الحصافى، فهو أخونا فى الطريق حينذاك، وكان يدرس ويعظ، ويرأس بعد ذلك حلقة الذكر، فقصد المسجد ولم أكن أعرفه ولا يعرفنى ودرس ووعظ، ثم دعا الناس إلى الذكر، فرأيت أسلوب الطريقة الحصافية وتعرفت إليه أخيراً.

ولكن الحق أننى لم أكن متحمساً لنشر الدعوة على أنها طريق خاص لأسباب أهمها: أننى لا أريد الدخول فى خصومة مع أبناء الطرق الأخرى، وأننى لا أريد أن تكون محصورة فى نفر من المسلمين، ولا فى ناحية من نواحى الإصلاح الإسلامى، ولكنى حاولت جاهداً أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد، وهى أركان الدعوة الإسلامية الجامعة، ومن أراد بعد ذلك تربية خاصة فهو وما يختار لنفسه، ولكنى مع هذا أكرمت الشيخ عبد الرحمن وأحسنت استقباله، ودعوت الراغبين فى الطريق إلى الأخذ عنه والاستماع إليه حتى سافر.

كما تعرفت فى هذه الفترة إلى السيد محمد الحافظ التيجانى الذى جاء إلى الإسماعيلية خصيصاً ليحذر من دسائس البهائيين ومكايدهم، وقد كان لهم فى هذا الوقت دعوة ودعاة فى هذه النواحى، تقوى وتشتد وتنتشر، فأبلى البلاء الحسن فى تحذير

الناس منهم، وكشف خدعهم وأباطيلهم والرد عليهم، وقد أعجبت بما رأيته من علمه وفضله ودينه وغيرته وناقشته طويلاً - وكنا نسهر ليالى عدة - فيما يأخذ الناس على التيجانية من غلو ومبالغة ومخالفات، فكان يؤول ما يحتمل التأويل، وينفى ما يصطدم بالعقيدة الإسلامية الصافية ويبرأ منه أشد البراءة.

كانت طريقتى مع هؤلاء الشيوخ الكثيرين الذين يزورون الإسماعيلية أن أتأدب معهم بأدب الطريق وأخاطبهم بلسانها، ثم إذا خلونا معاً شرحت لكل منهم حال المسلمين وجهلهم بأوليات دينهم، وتفكك رابطتهم، وغفلتهم عن مصالحهم الدينية والدنيوية، وما يهددهم من أخطار جسام فى كيانهم الدينى بزحف الإلحاد والإباحية على معسكراتهم، وفى كيانهم الدنيوى بغلبة الأجانب على خيرات بلادهم، وكان المعسكر غرب الإسماعيلية، ومكاتب شركة قناة السويس فى شرقها مدداً لا ينضب من الأمثلة على ذلك، أذكرهم بالتبعة التى على كاهلهم لهؤلاء الأتباع الذين وثقوا بهم وأسلموهم قيادهم، ليدلوهم على الله ويرشدوهم إلى الخير، ثم أطلب إليهم فى النهاية التربية الإسلامية الصحيحة، وجمع كلمتهم على عزة الإسلام والعمل على إعادة مجده.

ولا زلت أذكر مقابلة قابلت فيها الشيخ عبد الوهاب الدندراوى رحمه الله، فرأيت شاباً فى سنى تقريباً، فى العشرين أو الحادية والعشرين من عمره، وفيه صلاح وخير، فجلست معه موقراً إياه كل التوقير، حتى إذا انتهى المجلس العام طلبت

أن أخلوا به فى حجرة خاصة، ولما دخلت خلعت طربوشى فوضعته على كرسى وخلعت عمامته ووضعتها إلى جوار الطربوش، وهو يستغرب هذا العمل الذى لم يفاجأ به من أحد من قبل، وقلت له: يا أخى لا تنتقدنى فى هذا العمل فإنما فعلته لأقضى على الفارق الشكلى بينى وبينك، ولأخاطب فيك الشاب المسلم عبد الوهاب الدندراوى فقط، أما الشيخ عبد الوهاب الدندراوى فقد تركناه فى المجلس العام، إنك يا أخى فى العشرين من عمرك، وكلك والحمد لله شباب وقوة وحماسة.. ها أنت ذا ترى هذه الجموع، التى جمعها الله عليك، لتقضى الليل فى ذكر ونشيد، ثم لا شئ بعد ذلك، والكثير منهم شأنه من شأن غيره من المسلمين؛ جهالة بالدين، وبعد عن الشعور بعزة الإسلام وكرامته فهل ترضى هذا؟.

فقال: وماذا أصنع؟!.

قلت: العلم والتنظيم والرقابة، وتربيتهم على سيرة سلفنا الصالح، وتاريخ أبطالنا المجاهدين، وكان كلام طويل بيننا حول هذه المعانى، تأثر به الشيخ تأثراً عميقاً، وتعاهدنا معاً على العمل، أخوين لخدمة الإسلام العام وتركيز دعوته فى النفوس، كل فى ميدانه ومحيطه، وأشهد أنه ما جاء الإسماعيلية بعد ذلك إلا بدأ بزيارتى وتطمينى بأنه على العهد مقيم حتى توفى رحمه الله وجزاه عن الوفاء خيراً.

الخاتمة

لا يخفى على العقلاء من أهل الدين أن الفتن الفكرية وآراء الفرق الباطلة بدأت تنشط لنشر سمومها فى المجتمعات الإسلامية وخاصة بعد أن بدأت تظهر- بفضل الله وتوفيقه- آثار النهضة الإسلامية فى كل بقعة من بقاع الأرض، ويريد كل صاحب هوىً وغرض أن يستفيد من هذه الظاهرة المباركة لصالحه، فكم من عدو للإسلام جاء بكفر صريح وباطل محض مدعياً أنه هو الإسلام الحق كذباً وزوراً.

وهذا الظلم والبهتان لم يبتل به الإسلام فقط، بل قد ابتليت به السلفية أيضاً، فنرى كذلك كل صاحب هوى وغرض يأت بآراء شاذة وفاسدة ويسميها بالسلفية، ويخدع بها البسطاء والسذج من المحبين للدين والسلف الصالح رضى الله عنهم، وينشر فيهم الأفكار الخبيثة والآراء الباطلة المخالفة لأصول الدين ومذهب السلف الصالح وآرائهم. ويتأثر الناس (المساكين) لدعاياتهم المكثفة ويغترون بها فيضلون ويهلكون.

والله يشهد أن السلفية لا علاقة لها البتة بكل ذلك، ولا يقول بشئ من ذلك أى من السلف الصالح رضى الله عنهم ومنهم السادة الصوفية، إلا إن أرادوا بالسلف: سلفهم من الخوارج والمفسدين ونحوهم. فنعم- وأما سلف المسلمين (السلف

الصالح) فإنهم بريئون ورب الكعبة من هذه الضلالات.

وهكذا نسمع بين حين وآخر من بعضهم الطعن والتشنيع فيمن قلد إماماً معيناً فى الأمور الفقهية، وعمل بمذهب إمام الأئمة سيدى جعفر الصادق، أو بمذهب أحد الأئمة الأربعة المجتهدين المرضيين: أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد رحمهم الله تعالى ورضى عنهم، الذين أجمعت الأمة وعلماؤها منذ القرون الأولى على جواز تقليد أى منهم فى الفقهيات.

ولكن نرى بعض أولئك المنحرفين فى نواحى شتى من الأرض ينشرون باطلهم مدعين أن التقليد لأحد هؤلاء الأئمة- ونعوذ بالله- بدعة ضلالة، بل يتجرأ بعضهم إلى أكثر من ذلك ويقول: إنه ضلال وشرك، وكل هذا مع الأسف الشديد باسم السلفية المظلومة المسكينة أيضاً.

وينسى هؤلاء أو يتناسون أن أئمة الدين والهدى وأعلام العلم والإيمان العاملين بهذه المذاهب والمقلدين لأئمتها مثل: الطحاوى والعينى والألوسى والقارى والزيلعى والدهلوى (الأحناف)، والنووى والعسقلانى والغزالى وابن كثير والذهبى والسيوطى (الشافعية)، والقرطبى والباجى وابن عبد البر وابن العربى (المالكية)، وابن عقيل وابن قدامة والجيلانى والمقدسى وابن عبد الهادى (الحنابلة)، بل وأئمة السلفية ابن القيم وابن رجب

الحنبليين، ثم محمد بن عبد الوهاب.. وغيرهم عشرات الألوف من الأئمة والعلماء الأجلاء يصبحون على هذا الرأى الفاسد: (مشركين ومبتدعين).

نعم هكذا يضللون ويكفرون ويبدعون أئمة السلفية وسادتهم وباسم السلفية- فيا سبحان الله- وكما يقولون: (الجنون فنون). ونسأل الله العافية.

وهكذا نسمع بين حين وآخر من ينادى بأن (التصوف كله باطل وأن الصوفية طائفة زائغة لا علاقة لها بالإسلام، بل إنهم أعداء للدين وأن أصلهم من اليونان أو بوذية الهند.. إلى آخر ذلك من الترهات)، وهذا كله أيضاً مع الأسف الشديد باسم السلفية المسكينة.

مع أن الواقع بخلاف ذلك، فإن الصوفية- كما رأيت- عند أئمة الحركة السلفية وسادتهم قديماً وحديثاً طائفة إسلامية مثل بقية الطوائف الإسلامية الأخرى كالمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والمجاهدين وغيرهم، فيهم المصيب والمخطئ، والصالح والطالح، والأصلى والمزيف، والسالك والواصل والمتمكن.

وقد عشنا معك أيها القارئ الكريم فترة من الزمان مع أقوال أئمة السلفية، وذكرنا الشئ اليسير من أقوالهم فى حق السادة

الصوفية (السلف الصالح) واكتفينا بما يسهل قبوله، ولا يعسر على العقول هضمه، ولا يصعب على النفوس تحمله، وقد رأيت مدح هؤلاء في حق التصوف والصوفية المقيدة بالكتاب والسنة كما يلي:

(١) قال ابن تيمية: (ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيره وأخلاقه، كقول بعضهم: الصوفى: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر.

التصوف: كتمان المعانى وترك الدعاوى، وأشباه ذلك، وهم يسيرون بالصوفى إلى معنى الصديق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء: الصديقون).

(٢) قال ابن القيم: (الدين كله خُلُق، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الدين، وكذلك التصوف.

ومرتبة التصوف: هى مرتبة التَفَتِّى بكل خلق حسن، والخروج من كل خلق ذميم).

(٣) قال ابن عبد الوهاب: (إعلم - أرشدك الله - أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى الذى هو العلم النافع، ودين الحق الذى هو العمل الصالح.

إذا كان من ينتسب إلى الدين: منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به كالفقهاء، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة

كالصوفية، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين).

(٤) قال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: (ولا ننكر الطريقة الصوفية، وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهج القويم المرعي).

(٥) قال محمود خطاب السبكي: (الصوفية قعدوا على الدعائم الأصلية ووقف غيرهم على الرسوم، ومن هنا فازوا فوزاً عظيماً وبلغوا من الكمالات ما لم يصل إليه غيرهم، ولكن لا سبيل لك أيها الإنسان إلى ذلك إلا بمجاهدة النفس ليلاً ونهاراً بهمة قوية، مع الإخلاص التام لرب البرية).

(٦) قال حسن البناء: (ولا شك أن التصوف والطرق كانت من أكبر العوامل في نشر الإسلام في كثير من البلدان، وإيصاله إلى جهات نائية ما كان ليصل إليها إلا على يد هؤلاء الدعاة، كما حدث ويحدث في بلدان أفريقيا وصحاريها ووسطها، وفي كثير من جهات آسيا كذلك.

ولا شك أن الأخذ بقواعد التصوف في ناحية التربية والسلوك له الأثر القوي في النفوس والقلوب، ولكلام الصوفية في هذا الباب صولة ليست لكلام غيرهم من الناس).

وإذا كان أئمة السلفية يقولون بانتمائهم عقيدة للإمام المبجل أحمد بن حنبل ﷺ، فها هي مقتطفات عن الصوفية رواية عن

الإمام أحمد فى آخر الجزء الثانى من كتاب (طبقات الحنابلة) للقاضى أبى الحسين محمد بن أبى يعلى قطعة من مقدمة الشيخ أبى محمد بن تميم الحنبلى، يقول فيها ما نصه: وقد سئل مرة- أى الإمام أحمد- عن المريد؟ فقال: أن يكون مع الله كما يريد، وأن يترك كل ما يريد لما يريد. وكان- أى الإمام أحمد- يعظم الصوفية ويكرمهم، وقال: وقد سئل عنهم وقيل له: يجلسون فى المساجد؟ فقال: العلم أجلسهم. وذكر أيضاً فى (طبقات الحنابلة) الجزء الأول صفحة (٢٦٣):

وقال أبو جعفر محمد بن أحمد بن المثنى: قلت لأحمد: ما تقول فى بشر- أى بشر الحافى الإمام الصوفى-؟ فقال: سألتنى عن رابع سبعة من الأبدال(١).

وذكر أيضاً فى (طبقات الحنابلة) الجزء الأول صفحة (٣٨١): ذكر أبو سعيد بن الأعرابى أن أحمد بن حنبل كان يقول: معروف الكرخى- وهو من أعلام الصوفية- من الأبدال وهو مجاب الدعوة.

وذكر فى مجلس أحمد معروف الكرخى، فقال بعض من حضره: هو قصير العلم، قال أحمد: أمسك عافاك الله، وهل يراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف (يعنى خشية الله تعالى).

---

(١) ها هو الإمام أحمد أيضاً يعترف بوجود الأبدال وأن عددهم سبعة وهم الذين ينكر أدعياء السلفية وجودهم!!.

وذكر أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى (مناقب معروف الكرخى وأخباره)[1] فى الباب السابع (فى تبرك العلماء والصالحين بزيارته) قال ما نصه: (كان جماعة من العلماء الأكابر والزهاد يغشونه ويتبركون بزيارته منهم: الإمام أحمد بن حنبل، وبشر بن الحارث، ويحيى بن معين وغيرهم من المشهورين وممن لا يعرف من الصالحين)[2].

وفى ختام هذا الكتاب نعيد السؤال الذى طرحناه فى الافتتاحية على أدعياء السلفية: هل أنتم متبعون أم مبتدعون؟.

ها هى شهادة شيوخكم فى التصوف، فإما أن تقتدوا بهم وتمدحوا التصوف كما مدحه شيوخكم، وإلا فأنتم خوارج وعملاء لأعداء الإسلام الذين يريدون تفريق الأمة، ونزع عوامل وحدتها وصلاحها بأيديكم!!.

نكتفى بهذا المقدار، سائلين المولى ﷻ أن يجمع قلوبنا على الهدى الذى عليه الفرقة الناجية، وأن يوفقنا جميعاً لطاعته وطاعة رسوله-ﷺ وآله- ظاهراً وباطناً، وأن يرزقنا شفاعة حبيبه المصطفى، ويحشرنا تحت لوائه بفضله وكرمه، إنه حميد مجيد.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) نشرته دار الكتاب العربى- بيروت.

(٢) لاحظ أن الإمام أحمد كان يزور روضة معروف الكرخى ويتبرك به وهو ما يمنعه أدعياء السلفية اليوم.

الفهرس

الموضوع | **صفحة**

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الصوفية فى عيون سلفية

إن فتنة الوهابية من المصائب التى أصيب بها أهل الإسلام. فإنهم سفكوا كثيراً من الدماء وانتهبوا كثيراً من الأموال. وعم ضررهم. وتطاير شررهم ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

والكثير من أحاديث النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيها التصريح بهذه الفتنة بعضها فى صحيح البخاري، وهذا الكتاب هو الثانى من سلسلة الكتب العزمية سنصدرها بإذن الله- لكشف وفضح فتنة الوهابية وكل كلمة من صفحات الكتاب نشرناها بنية الدفاع عن الإسلام لا الهجوم على أحد، قاصدين بذلك الوفاء للإسلام الذى أعزنا الله به.

وما أردنا من نشر هذه السلسلة إلا قطع الطريق على كل من يروج للوهابية، وعلى كل من يحاول الدس والافتراء على سادتنا الصوفية، ولو أسدل الستار على فكر ابن عبد الوهاب لكنا معذورين فى تجاهله والتجاوز عن أخطائه.

أما وقد صار فكره عقيدة عند بعض الشباب المضلل، فإن من يقرأ كتاب التوحيد (إنجيل الوهابية) يراه متخما بالثرثرة بالشرك وإخراج المسلمين من الدين والإسلام.

أما والحال هذه فإن السكوت والتجاهل ربما يعد اعترافا ضمني

هذا القول علم لاجهل، وعدل لاتحامل، وكيف نستسلم للكذاب و

على فكره بقوه وعزم، ولدينا القوة التى نصد بها المه

والمفترين.

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب، كما نسأله أن ينفع بغيره م

هذه السلسة الهامة...

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

